

خالد محمد خالد

مواطنون... لا رعايا

« إذا ما سئلت : هل الشعب جدير
بأن يكون حراً . . . ؟
« أجيب سائلا : وهل هناك فرد
جدير بأن يكون مستعبدا . . . ؟ »
« جون رسل »

الطبعة السادسة
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ملتزم النشر والتوزيع
مؤسسة الخانجي بالقاهرة
مكتبة المثنى ببغداد

الاجتهاد

إلى الدين :

ضافت مدورهم بالظلم ...

وطال شوقهم إلى الحرية...

ويتساءلون أين الطريق ...

فی هذا الكتاب

- ۱ — شعب فی السلاسل ..
- ۲ — الحرية . هی الخلاص ..
- ۳ — الشخصية کی تعمل ..
- ۴ — تمهید مصر

مقدمة الطبعة السادسة

أرادت « مكتبة المثني » ببغداد . . و « مؤسسة الخانجي » بالقاهرة أن تحيا ثورة العراق بطبعة خاصة من كتاب « مواطنون .. لأرعيا » . . هذا الكتاب الذي حظرت حكومات العراق السالفة نشره ، وكان مجرد اقتنائه جريمة تسوق صاحبها للسجن والعذاب . .

لقد صدرت الطبعة الأولى منه عام — ١٩٥١ — أى بعد عام واحد من ظهور سلفه وشقيقه « من هنا . . نبدأ » .

وتحدثت عنه في مقدمته التي ستطالعونها بعد هذه الصفحات ، قلت : « هذا كتاب يحى مع الربيع لبشر بالحرية أمة أضناها صقيع الاستعباد » . . كان صقيع البغي يهراً أجساد البشر في المنطقة التي نعيش فيها نحن شعوب هذا الشرق العربي . .

كانت حفنات تمعد على أصابع القدمين من الملوك ، والأمرء ، والأقطاعيين تسخر الحياة والأحياء لخدمتها . .

في كل بلد عربي ، كان ثمة طغاة ومستهترون يحتسون دموع اليتامى ، ويرقصون على حشيرة الضحايا ، وكان شعارهم دوما :
اليوم خمر . . وغداً خمر

ولكن سورة الانبعاث القومي كانت تتجمع وتتنادى .

وكانت قصائد الشعراء ، ومقالات الكتاب ، ومحاولات السياسيين الشرفاء وإصرار الجيل الجديد الصاعد . .

كان ذلك جميعاً يؤكد وجود الطليعة التي ستفتح الهول وتبدأ الزحف ،
وتقرر المصير .

كانت القصيدة تنظم في بغداد . . فلا تضي ساعات أو أيام حتى تكون
ملء أفئدة المناهضين بمصر وعلى ألسنتهم .
وكانت المقالة تنشر في القاهرة . . فإذا هي بعد برهة حديث الناس في بغداد
وفي دمشق ، وفي الأردن ، وفي الحجاز واليمن . وكل وطن عربي . .

وكان ذلك أمراً مألوفاً بل محتوماً فمشا ؟ كلنا كانت واحدة . .
الطغيان ، والأقطاع . .
السجائب ، والجلاد . .
الشقاء ، والمسغبة . .

كل ذلك كان هنا ، وهناك . .
كذلك كانت وثبة الجموع المرتقة واحدة . . وإصرارها المتبدى ، واحد . .
وكان فجرها المنتظر مع تلك الجموع كلها على ميعاد . . .

وحين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في مصر ، سقط في أيدي
الحاكمين الذين فوجئوا به . . وعبسوا وبسروا . . وفكروا وقدروا . .
أيصادرونه أم يتركونه . . ؟ ؟ ولكن أحد رجالهم بعينه المنصورة سارع
فصادرهم وأحيل الكتاب إلى النيابة العامة ، حيث لم تجد وجهاً لإقامة الدعوى .
فقررت حفظ الاتهام . .

وقراء الناس في مصر . . وفي سوريا . . وفي لبنان . . جبهة
وعلانية . . ولكن أهلنا في العراق ، وفي بعض الدول العربية الأخرى . . لم
يستطيعوا قراءته إلا خلسة . . فقد صودر ، وحرم ، وأخذ مكانه في قائمة
المنوعات . . .

واليوم ، ونحن نهدي طبيعته هذه إلى العراق الرشيد الذي كنا إلى أمس
القريب ندعوه « العراق الشهيد » . . يسعدنا أن نسهم به في بناء نهضته المقبلة
المجيدة .

إن رعايا « جلالة الملك » . . بالعراق ، قد أصبحوا مواطنين . .
ونضاي « ولي العهد » هناك ، تحولوا إلى عمالقة عارمين . .
والجموع التي حسبوها قطعانا . .
والتربص الذي ظنوه خذلانا . .

انطلق كل هذا مع القدر العظيم ليحق الحق ويبطل الباطل . . وليأخذ
بناصية الأمور نحو مجراها الصحيح في بلد طالما عاث الفساد والظلم بين ربوعه
ونجوعه . .

تحية للمواطنين في العراق . .

وأول دعواي إليهم وآخرها : أن كونوا دوماً مع الحرية ، ومع العدل ،
وخذوا مكانكم إلى الأبد بين أصدقاء الحياة .

القاهرة : في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥٨

غالب محمد غالب

مقدمة الطبعة الأولى

سنة ١٩٥١

هذا كتاب يحىء مع الربيع ، ليبشر بالحرية أمة أضناها صقيع الاستعباد .
ويدعو المواطنين جميعاً أن يؤمنوا بالحرية ، ويسكروا لها حياتهم حتى
يفيئوا كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً . لا تلتفحهم مقايض البطش ، ولا يخدم عليهم
أوار القمع والارهاب .

وهو قد كتب لتقرأه جميعاً ، فإذا توائمت بين صفحاته وسطوره فقد
اختصرت رحلة الربيع يا صديقي . ثم هو ليس جديداً عليك ، ولا بعيداً
عنك ، فكل كلمة فيه خفقة في صدرك ، أو دمعة في عينك ، أو أمل يتعامل
بين حناياك .

كما أنه ليس بحثاً علمياً في السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة أو التاريخ
بل تصويراً نحسبه صادقاً لأحاسيس الشعب حيال أميته الكبرى - الحرية .
ولقد كان كتابنا الأول - من هنا . . . نبدأ - دعوة خالصة لتحرير الشعب
من الجوع والوهم .

وهذا الكتاب دعوة مماثلة لتحريره من العبودية والظلم ، وإذا الجماهير
جاعت ، وخافت ، فقد تقطع ما بينها وبين الحياة من عروة وسبب . . . وحق
عليها في مجال مقارنتها بالعالم السعيد قول الشاعر العربي :

زعمتم أن أخوتكم قريش لهم إلف ، وليس لكم إلف
أولئك آمنوا جوعاً وخوفاً وقد جاءت بنو أسد وخافوا .
ونحو نعلم أن في بلادنا فئاما من الناس يتساءلون في حلق : لماذا نكتب
ولماذا نتقد . ؟ ولماذا لا نعتمد أقلامنا ، ونرعى علينا ستورنا ، ونأمر أبصارنا
أن تغمض . وتغضى على الدل أشفارها ؟

ولكن إذا رأينا نارا ماردة تحتاح أهلنا وعشيرتنا - تلفح وجوههم ، وتشوى
أبشارهم ، وتجلجل عليهم جلجلة الجحيم . ثم اقتربنا بمضخات الأنقاذ نكافح
النار المجنونة ، ونطفىء غيظ هذا السعير ، أنكون قد اجترحنا خطيئة
واقترعنا وزرا . . ؟

كلا - وهذا هو جوابنا للذين يتساءلون ، واعتذارنا عن الواجب
الذى نهى لبذله وأدائه ، وأنه لمن نكد دنيانا أن يصير الوفاء بالواجبات
العامة أمراً يستحق التبرير والاعتذار . ١

إننا حين ندير أبصارنا فى هذه الرقعة المظلومة من الأرض . الرقعة
اللى تضمننا . وتضم ماحولنا من الأمم الجائية ، نرى شعوبا قد أحاطت
بها خطيئتها من استعمار دخيل تتضرم هواجره ، واستبداد وبيل
تتوقد لواخه .

على كل شبر من أرضها - آثار أقدام الغزاة .
وعلى كل ظهر من ظهورها بذبا - سباط العتاة .
فلماذا . ؟ وإلام . ؟

لماذا يحرمها الاستغلال من لقمتها . ١
ولماذا يحرمها الاستبداد من حريتها . ؟
ولماذا يحرمها الاستعمار من سيادتها .
ولماذا يأتمر براحتها ، وحياتها قوم ليسوا من أصلها ولا من تراثها ، ؟
وإلام يذل أهلها ، ويعزفها الغرباء . ؟
أن أهدافنا اليوم تتركز جميعها فى الحرية .
فلنجرد روح الحكم من الهايونية والتفرد والبغي .
ولنجرد روح الشعب من الاسترابه والتربص والخوف .

وتقدم مضمون هذا الكتاب يرتاد لنا الطريق ، ثم عاد وعلى عشاء وعشاء السفر ، وإشراقة الظفر ليحدثنا عما رأى ويستحدثنا للمسير .
فلنمض معه في خطوات أكيدة مطمئنة مسلحين بروح الحرية نفسها ،
روح الحرية الذي يضع التفاهم مكان العنف - والفكرة موضع القذيفة
والوضوح بديل المؤامرة . والغيرية الفاضلة . مكان الأنانية الباغية . . .

ونحن على يقين بأننا لن نجد حاكما تفيء منه لبلادنا وشائج القربى والرحم
يثبط مسعانا ، ويعترض ركبنا ، ويتحدى مشيئة وطنه ومواطنيه وإذا
خاب يقيننا ، ووجد هذا الحاكم ، فليقبل منا هذا النصيح الأمين . .

إن الحرية لا تغلب أبدا . . . وهي تقاتل بالمقاومة ، وتزدهر بالتحدي .
وتترقق الحياة فيها كلما هطلت عليها السنة السياط .

وكما قال فيلسوف كريم : « الذين يكافحون الحرية بالبطش - كالذين
يكافحون الحريق بقاذفات اللهب » وأنا لأكثر برا بالحاكين من أنفسهم
حين تنههم عن الأنانية والعدوان . .

ما صالحهم في أن يفقدوا محبة الشعب ويظفروا بعداوتهم ؟
ما صالحهم في أن يبيعوا مكانهم المرموق في التاريخ بلذة عاجلة ،
وحظوة آفلة ؟

إن الاستعمار يسكيد لنا - حكومات وشعوبا - ويريد أن يضرب بعضنا
بعض ، ويؤلب بعضنا على بعض ، فلنحذره ، ولنؤاخ بين كفاحنا المشترك من
أجل التحرر والخلاص . ويا أيها الذين ينتظرون موكب الحياة ليستردفهم
وراء ظهره كما يستردف اللقطاء .

سيروا وحدكم وقابلوه في الطريق
سيروا ، قبل أن يطول بكم الانتظار ؟

شعبٌ في السلاسل ..

« قبل أن تحملوا مطارق التحرير ،

تبينوا مواضع الطرق .. وقبل أن تمضوا

إلى الغاية مثقلين ، طهروا أرجلكم من

الأغلال ، وخففوا كوا هلكم من

الاثقال . »

عصر الشعوب . .

على ظهر هذا الكوكب ألفامليون من البشر ، قرروا من غير لقاء تم
بينهم أن يحققوا حرية الشعوب ، ويرفعوا ألوية الجماهير .
وهو قرار أزلي قديم . .

ويوم عزم آباؤهم الأولون على إنقاذه أرسلوا رائدهم . . رعيلا من البواسل
الأعجاء ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق . . وبينما هو ماض إلى غايته ، دهمه
البغاة من كل فج يحملون المدى ، والرماح ، والسيوف . . وطفقوا
يصلونه من نغماتهم سعيراً . . وإذ هو يفسر في غمرة المباغثة : أيمضى
قدما أم يعود — صاحت به الأجيال المستقرة في ضمير الغيب : تقدم فليس
إلى مرد من سبيل . .

وانطلق من جديد يحمل الأمانة الكبرى في شجاعة وإيمان ، وشق طريقاً
محفوفاً بالمكاره والأخطار وكلما مر على ملاء من صنائع الشر سيخروا منه
وتألبوا عليه . .

لقيته الجيوش في موج كالجبال . . شاردة حرايها ، نخاض معها معارك
الهول وقضى نحيبه فريق . . وتدفق الباقون يشخون في الأرض المجهولة لا يلقون
لهواتف اليأس سمعاً ولا بالاً . .

لقيه المرجفون والمثبطون ، وحاولوا إيهامه أن السفر طويل والزاد
قليل ، والمغامرة خاسرة ، والهدف جد بعيد . . فنفاهم عن طريقه ومضى
تصدت له قصور الأباطرة ، والقيصر . . تسد الطريق وترحم الأفق
تطأ بقواعدها أرض الناس وتتحدى بأبراجها سماء الله ، فدمد عليها ،
وتركها كشيئا مهيلاً — رحلة الضنى والهول كلما تقطعت دون غايتها أنفاس

جيل أسلمها إلى جيل ، وكما أنجز تبعاته رجيل ، نهض في أثره رجيل .
وكانت رواية فذة ، اختلفت مناظرها وتغير أبطالها ، لكن موضوعها لم
يتغير . . ما أروع هذا الذي حدث من أجل الحرية . ا

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط . . وأخرى ترفع قبل العيون من
عذابا . . وأمالا رطابا . ! مشاهد تتقاذف كهدير العاصفة ، وأخرى تنساب وديعة
ساكنة كأشعة القمر . . ! في بداية الطريق ظلام ويأس ، ثم محاولة وتردد ،
ثم اقتحام وتحد . . وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم ، وأعاصير وعواصف :
ومن وراء ذلك عالم تشرق عليه من ذلك الأفق البعيد شمس الحياة
والحرية والحضارة .

وعالم آخر لا يزال يلفه مثل الضباب فهو مقرر ضرر .
وفي ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الدين غمرتهم
الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع . . ولا يورقهم خوف . والدين لا يزالون مقرنين
في الأصقاع .

وما أشد حاجتنا إلى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه . ونرى . ا
لقد وقف حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات يوم ينشد
من شعره ما يشير ذكريات الجاهلية الأولى . . ولسكأنما شق الحديث على عمر
فهب في وجهه بصيحته الزاجرة . . فقال الرسول : دعه يا عمر يذكرنا
بأيام الله ، فأن لنا فيها عظة وعبرة . . فليتنا نستطيع أن نتذكر أيام الله
في هذه البشرية الكادحة ، لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة الطغيان
والكبت . . وكيف انتقلت من عهد الوحدانية الحاكمة — إلى عصر الشعوب
وحكم الشعوب .

فبعد أن كان أمير الإقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : « نبأيع صاحب الحق المطلق في حياتنا » . أصبحنا نقرأ مكانها . . « لكل إنسان الحق في الحياة وفي الحرية . وفي العيش آمنا مطمئنا » . . . ١١

وبعد أن كان حسن الجوارين أمير وأمير يقوم على تبادل هذا النص المخزي . « أتعهد ألا أعتدى على أرضه ومواشيه ورعاياه العبيد » . . صرنا نقرأ بديلها « لا يجوز أن يعيش إنسان في الرق والاستعباد » .

وبعد أن كان الناس — كما يقول أوليفيه . . « يسخرون لصيد الضفادع من الصدران كي لا تعلق الأمير الإقطاعي من نومه » . . « ويجلدون بالسياط إذا نهروا كلاب ساداتهم التي تخرب حقولهم . . ويقذفون في السجون إذا عارضوا رغبة الملك وبطانته في الولوغ بزوجاتهم أو بناتهم » .

بعد أن كان ذلك كذلك . . إذا لواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء ، فلا يسخرون لصيد الضفادع ، ولا يجلدون بالسياط ، ولا يستباح لهم عرض أو تنتهك لهم حرمت ، والآن . لتبدأ كرأيام الله فينا . . في أمتنا التي أتعبت التاريخ وأتعبها . . لتبصر مكانها في عالم اليوم ، فإذا كانت لا تزال جاثية مصفدة — نقبنا عن الأوتاد التي تشدها إليها . وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذي يحجب عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى يزاح عن أفق طالما بزغت فيه حضارات ألهمت أشعتها الدافئة الإنسانية المقرورة للعرشة بعد أن عاث فيها الصقيع . . نحن نجس أننا في بلادنا مستوطنون ، لامواطنون . . ورعايا . لا أكفاء . . ورعايا كل حاكم مستبد ، وكل أقطاعي كبير . . رعايا طائفة من التقاليد العفنة التي توجه السياسة والاقتصاد والاجتماع . . رعايا استعمار مضى — ولا يزال ينالنا

بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا في الضباب والظلمات ، ويوشك الذي حاق
 بالهند أن يحقق بنا .. فالبرهميون الذين غزوها وفتحوها — أصبحوا هم
 الهنود .. أما الهنود الأصليون ، فقد جرفهم الموج وألقاهم على الشاطئ
 البعيد نثرات . . . 1 . . . وصار اسمهم المختار — المنبوذين — فلنحاول قبل أن
 يبلغ الموج بنا مداه . . . ولننظر السلاسل التي صعدتنا بها الحوادث ،
 ونقضها ، حتى نقدر على التجديف ومغالبة الطوفان ، وإذا نحن علمنا
 أن روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها ، وأن هذا الروح مشحون
 بالرواسب الضارة التي تقعده وتثقله وتخذله ، فقد استبان لنا طريق
 التحرر والخلاص .

تطهير الروح من رواسب الماضي ، وتطهير الضمير من مخاوفه . وتطهير
 العقل من أوهامه . وتطهير الإرادة من سلاسله الغلاظ .

وقبل أن نحمل مطارق التحرير — يجب أن نتبين مواضع الطرق ، وقبل أن
 نطلق إلى الغاية مثقلين — علينا أن نطهر أرجلنا من الأغلال .

إن الفساد الذي أزهقنا بمشاقه . وإغناته — هو الاستعمار التركي ،
 ثلاثمائة عام سويا . . ثم امتداده الذي تلقف منه العهد ، وسار على الدرب
 ولا يزال يسير ، وهو الاستعمار البريطاني ، ثم النظم التي تقمصتها روح
 الاستعمار وشهواته ليعملا عن طريقها . وأهمها البرلمان البرجوازي .
 ثم النفسية الواهنة المريضة التي أضرها الاستعمار ، وقسمها على ذاتها ،
 وتتمثل في الغرائز المكبلة الناقصة . . . وسنتحسس الآن بأيدينا هذه
 القيود ، قيود ، قيود ، ولن نطيل المكث معها فحسبنا أن نتبين طبيعتها
 ونقف على عوامل بقائها — ثم نعى العناية المستطاعة بفصمها ، والخلاص منها

طوفان رجيم . . .

ذات يوم ، وأنا أطلع في كتاب « أزمة الضمير الأوربي » التقت عيناى بآية رائعة نحيث الكتاب بعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعاني الجليلة التى تشف عنها هذه العبارة الجامعة ، وبلغ من إشراقها أن أضأت لى ما بين يدي وما خلفي ، ورسمت أمامي نهجا كاملا للحرية والخلاص ، أما العبارة فهذه :

يقول فنيون — « إن الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التجديد أشبه بتلك الأنهار التى تفيض فتبدو رائعة ، لكنها تخرب الأرض الخصبة التى كان عليها فقط أن تروىها . . » .

ترى كم من الغزاة الذين تطفلوا على بلادنا يجللهم هذا الوصف ويحتويهم داخل أطاره الأسود الرهيب . . ؟ .

سنراهم الآن رأى العين ، أولئك الذين حسبهم آباؤنا الطييون أنهارا تجري بالخصب والنماء ، فشقوا لها الأرض ، ومهدوا أمامها الطريق — وفى أصل يومها وجراها راحوا ينشدون الحب والثمار ، فإذا الأرض خراب يباب ، ليس فيها ما يهتز سوى نفحات القر ، وسبرات الشتاء .

لقد استحال نبعها الوديع ، وانسيا بها الرقيق غربا هائجا ، وطوفانا رجيا — عبر الربوع تثيرا . !

نعم — هذا هو الذى حدث — فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا زعموا أنهم هداة لاغزاة . . ومصلحون لا فاحون . وأنهار غاية سعيها أن تروى الأرض لتتروى وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . . أنهار ستروى الشعب الشعب بالمعارف جميعا . . المعارف السياسية لينهض ويسود ، والإدارية لينظم

نفسه ويسوس أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة ، ويمضى مع الركب
 العليم الرشيد . . ثم ألفيناهم جميعا في سباق جبار نحو الكذب والنكوص
 بقدر ما كانوا في سباق هائل نحو الوعود المبذولة . والمزاعم الجريئة . .
 ألفيناهم طوفانا وسيلا ساق أمام أمواجه العاتية الصاخبة ما كان الشعب
 قد ناطه به من منى وأمل . . وجرف في عنفوان وجنون بقايا جلده
 وتماسكه . . والتهم فضل ما خلفته الأيام بيديه الضامرتين من قوت . . ثم
 مضى يتجشأ في استهتار - ويواصل تساققه وانحداره في عريضة منقطعة
 النظر . . ؟ ليست هذه الكلمات شعرا ، ولا مبالغة . . ولنسمع الآن للتاريخ
 القريب لا البعيد ، فإن لنا فيه عظة وعبرة ، ولكننا في هذا النطاق لن نبسط
 حوادث . . ولن نتقصى وقائع ، فليس هذا الكتاب سجل تاريخ - وغاية
 ما صنعه أن ترفع تجاه الأبصار أعنى نماذج الاستعمار الذى عاث في أرضنا
 وطوق أعناقنا .

الاستعمار التركى . . والاستعمار الانجليزى :

وإنما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، وأشد عراما وكيدا ولأنهما
 لا يزالان يلفاننا في مثل الضباب من احتلال بريطانى جائم ، ومن مساوىء خلفها
 الاستعمار التركى ، واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ - الاستعمار التركى :

تركى = طاغية . . !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركى تستبد بنا طبيعنا الأزهرية التى
 تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه . وتأبى إلا أن تحلل
 لفظ « تركى » فما هو ؟ ولندكر أولا - أن علم النفس قد اكتشف علاقة
 وثيقة بين الإنسان واسمه ولقبه . ، ويضرب علماء النفس لنا - مثلا - رجلا

اسمه « صعب » فإن دوام انصباب هذه التسمية في سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن بظابعه ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة . . . وذلك لاريب هو سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت أسماؤهم من هذا القبيل فقد أبدل باسم « حرب » وكان يجعله بعض أصحابه « سلما » . . . وأبدل باسم « جهنم » اسما آخر هو « سمح » .

هناك إذن وحى مستمر توحيه أسماؤنا إلينا ، ويلون إلى حد كبير طباعنا ، أكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغیان ؟ ولكن - هل كلمة تركي ترادف طاغية ، حتى نشد بينهما هذا التلازم والانسجام . . ؟؟ نعم فالترجمة الحرفية لكلمة تركي هي - طاغية !

يقول العلامة البستاني صاحب دائرة المعارف :

« وقد خرجت من جبال التابی قبائل ، وتفرقت في أنحاء آسيا العليا التي هي الآن تركستان فساها الصينيون باسم توركو . كما سمي الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانيه - اسما جنسيا للقبائل المتوحشة ، وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية . ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن الأتراك كانوا يلقبون قديما بالدمرين . » ونحن على ذلك من الشاهدين فلقد دمرونا باحتلالهم وأشاعوا فينا الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وسرى الآن من حكمهم طرازا مقام يوم واحد في هجيرهم عذاب بتواضع إزاءه عذاب الجحيم ! وإنها لثلاثمائة عام ممتلئة بالسواد والفرع لبثناها تحت وطأة هذا الاحتلال التركي ، فتعالوا لننظر ما خلفه في ضائرتنا من قروح ، وفي أرجلنا من أغلال . ١

فمنذ عام « ١٥١٧ » ، يوم غزا السلطان سليم بن يازيد مصر ، إلى ما شاء الله من أعوام ، والشعب المصري في باستيل تركي يروض فيه على

بالذل والغش والجاسوسية وفي محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد ، ولقد أفاد الانجليز حين استعمرونا بعقريّة الأتراك القدماء في البغي والفساد . وطبقوا مناهجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل . ؟ ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بصاعة انجليزية خالصة ؟ .

والواقع أنه من مخلفات الاستعمار التركي . مارسه طوال عهده البغيض حتى همزنا شرمزق فلما جاء الإنجليز وجدوه سلاحاً ماضياً فتقلدوه .

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل بأسوأ معاني الكلمة ، في وضع هذا المبدأ الفاجر واستعماله . فقبل أن يغادر مصر إلى تركيا مزق السلطة فيها إلى ثلاث مزق ، وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الأخرى كي يدوم الشقاق بينها جميعاً ، وهو صاحب هذه الحكمة الخبيثة :

« إذا اختلف الثياب وتناحر . ضمنت لنفسك نوماً طويلاً » .

(١) النهب والارواقطاع :

ولقد شرع السلطان سليم لأبنائه وحفدته فضيلة انتهاب الأمم وسرقة الشعوب فإن « جورجى زيدان » يحدّثنا في كتابه « تاريخ مصر الحديث » أن هذا السلطان بعد فتحه القاهرة والإسكندرية ، وحين أزمع الرجعة إلى بلاده نقل معه ألف حمل ذهباً وفضة وأسلاباً أخرى . أرايتم . ؟ .

لقد هام كالكلب السعور في بلاد لا تربطه بها سوى صلة التقم والتسور والعدوان : ومضى ينهش كل لقمة في كف ، وكل درهم في جيب . وتولى الخلافة بعده ابنه السلطان سليمان ، فأعلن في فرمان رسمي « أنه المالك الحر لجميع أرض مصر . . » . ووزعها إقطاعات على مزارعين دعاهم « الملتزمين » نظير خراج باهظ . . ووجد من الأربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر في عهده كل عون لمظالمة وتثبيت سياسته ، وإذن فنظام

الإقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم ، ثم لم ترحل معه يوم رحل
ب بل ظلت على شكل باذخ مثير .

(ب) الرشوة .. !

والاستعمار التركي هو الذي دنس ضمير هذا الشعب بالرشا ، فلقد وجد
نفسه على دين عصاة ضخمة تنظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر
ولاية ، وكل هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن الرشوة والانتهاب من
طبيات ما أحل الله .

تصوروا أن الباب العالي نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويشيب
عليها يقول « بركهاردت (١) » :

« يطلب الباب العالي الموارد ، ولا شيء سواها ، ولكي يتسنى للبasha
إشباع هذه الحاجة تراء يعتمد إلى إرهاب الشعب ، ويضع على عاتقه الأعباء
الثقال ، أما البasha الذي يريد خيراً بالشعب ، ويقنع بالإيراد العام ويجعل
الغلبة في مجالسه للعدالة فإنه يجلب على نفسه دوّن ريب سخط مليكه ، لا لأنه
عادل ، وإنما لأن عدالته تمنعه من النهب . ومن نقل جانب مما ينهب إلى
الديوان . وإذا أراد البasha أن يبقى على نفسه ، فليس أمامه من سبيل إلا
أن يسلم في صمت رعاياه البائسين إلى عصا المستبد . وكان الارتقاء عن
طريق السرقة والرشوة » ، إذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ
ولا نزيد .

كانت الرشوة طريق الوصول إلى قلب السلطان ، وكان البasha الذي يريد
خيراً بالشعب . . ويقنع بالإيراد العام ، ويجعل الغلبة في مجالسه للعدل يجلب على
نفسه سخط مليكه .

(١) الدولة والنظام الاقتصادية في الشرق الأوسط - تعريب دكتور راشد البراوي .

كان الباب العالي يطلب الرشوة من ولايته ، وولايته يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة ، لذلك كانت عملة متداولة مشروعة ! ومحدثنا كتاب « الكافي » في جزئه الثالث : « أن علي باشا الصوفي أحد ولاة السلطان سليمان كان يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم ، مما أغرى الدهماء والخطرين بأمن الناس . » وكان خلفاؤنا الأبرار يبيعون المناصب جبهة فيحدثنا عبد الرحمن الرافعي في كتابه « تاريخ الحركة القومية » ناقلا عن المستشرق حارسل .

« . . إن تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر إلى آخره انحصر في تعاقب الباشوات الأتراك على ولايتها ، فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الآستانة ، ويظل الباشا في منصبه لا عمل له إلا جمع المال واستعفاؤه من أهله بمختلف وسائل النهب حتى يغادر منصبه وبهذا نرى أن الحكام الأتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير حمايتهم ورعايتهم ، والذين يرشون ويرتشون في وضع القانون ، كانوا أساتذة علموا هذا الشعب المطيع السمسرة ، والرشوة الحرام . »

(ج) الفقر والإرهاب :

ولم تصب مصر بمثل ما أصابها به الاستعمار التركي المديد من غدر مسلح ومؤمرات موصولة وإرهاب رجيم .

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض ، بل والخلفاء أيضاً يتآمر الابن على أبيه ، والأخ على أخيه ، وتفطنوا في الاغتيال . وحبك المؤمرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هي الشيء الوحيد الذي يتناولونه بيد الأستاذية البارعة المتفوقة . ولو أنك معي الآن تقلب الصفحات التي أقبلها من تاريخ

استعمارهم الأسود لتولاك من الروح والوهل مثل الذي يتولاني .

إن القلم ليجهل في مسيره ، وأكاد أشم رائحة الرصاص ، وترج سكينه بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المضرجين . وأسأل نفسي : مم تخافين وقد ذهبوا ؟ ربما تفزعها تلك الأشباح التي تترامى من وراء جرائمهم كأنها روءوس الشياطين . وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التي تملأ علينا حياتنا رعباً . حين قرأ مثلاً أن « محمود باشا التركي » آخر ولاية السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون ألف دينار تقبلها الباشا التركي متظاهراً بالغبطة والشكر ، ثم تواصل تلاوة الخبر ، قترى الباشا التركي بأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب خبرجه من لدنه خوفاً من منافسته ، ثم يأمر بخلق القاضي المصري « يوسف العبادي » ثم يأمر باغتيال معظم أعيان القاهرة الذين اتقدوا حكمه وسلوكه ، ثم يهترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصي) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحي نساءنا عندما تطالع هذا النبأ الدامي ، فاعلم أن بجواره مئات الأنبياء والمذابح ، وامش أهويننا ، فالطريق التي أمامك مزرقة بجثث آباءنا الذين صرعوا جهرة أو اغتيلوا في الظلام البهيم .

(د) دنشواي . . التركية . .

وإذا كنا نحفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفة لفضيحة « دنشواي » التي أعدم فيها الإنجليز خمسة من مواطنينا في ظروف معروفة ، فإن هناك في تاريخ الأتراك فضيحة مشابهة ، تجعلنا نعتقد أن الإنجليز كانوا مثاليين في جريمتهم للغزاة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة .

وإذا كانت (دنشواي) ، التركية ، لم تأخذ في التاريخ مثل المكان الذي

أخذته (دنشواى) الانجليزية . فلأنها لم تكن (دنشواى) واحدة ، بل كانت تسكر دائما كوسيلة لإذلال الشعب ، وإسلاس قياده حتى أصبحت من العقوبات العادية فى شرع الأتراك . !

حدث أن استولى « محمود باشا التركى » على جميع تركة « إبراهيم الدقردار » أمير الحج ، وكانت مائة ألف دينار ، واجبى من الناس بواسطة السوط والأرهاب مثلها ، ثم رفعها إلى الاستانة ليرضى عنه مولاه وعلم القاهريون ذلك وكانوا قد التمسوا من السلطان عزله ، علموا أن الرجل قد اشترى سلطانه وسيده بهذه الهدايا النهوبة ، فكتبوا له فى الطريق وقتلوه ، وفر القاتلون . وأرسل سوء الطالع فى هذه الطريق جماعة من الفلاحين لم يشتركوا فى القصاص من محمود باشا ، بيد أن الحاشية التركية للحاكم الصريح التمس لقتلهم ، والتمثيل بهم نفس الأسباب التى التمسها الانجليز فيما بعد لأعدام ضحايا دنشواى وبث الرعب فى البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية ، التى تخفف عنا لأواء هذه القساوة أن نستمع لبعض الأشعار التى تغنى بها الناس عندما خر ذلك الوحش التركى السائب .

أتى محمود باشا يوم نحس	فساقته منيته عصىة
تجاه الناصرية خلف حيط	بغيط جاءه منه مصيبة
بيندقة رماه كف رام	فسددها فجاءته مصيبة . !

(هـ) الزلزال والعلة . . . !

ورسم الاستعمار التركى سياسة لإذلال الشعب ، وإفناؤه . . . وإن مانعنا به اليوم من جبن عقلنا الباطن ، وتوجس عزمنا وإرادتنا لأثر محتوم لما أنزلوه بنا من رعب وبطش . لقد أنشبوا قسوتهم فى الشعب وشردوا

طعاً نيتته ، وضائق عليه المحاولات بما رجبت ، وبقيت لذلك مثلاً ، تلك القصة التي تروى عن أحد الولاة الأتراك ، حكم هذا الوالى على مصري بالإعدام ، وعند التنفيذ شدوا وثاقه ، وربطوه إلى سارية ، ثم سألوه . ألك حاجة قبل أن تموت ؟ .

قال : نعم ، أن أُنقل إلى سارية أخرى ...

فقصموا وثاقه ، وإذ هو فى طريقه إلى العمود الثانى ، توفي الوالى الذى حكم بإعدامه ، وولى الأمر بعده وال جديد ، ألغى حكم الإعدام وأفرج عن المصرى المسكين . ١

إن هذه القصة لم تقع ، وإنما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بها مبلغ القهر الذى أخذ بخناقهم ، وهوان الأمل الذى ناطوا به خلاصهم ، فالجماهير المضطهدة المغلوبية على أمرها بعد أن عجزت عن مواجهة جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تمنى ، وتخيّل ، وحقّ خيالها كان مكبلاً يدور فى مدار ضيق مساحتها تلك الأشبار التى تفصل بين ساريتين ... ١

ومن هنا إذن جاء هذا المثل الذى ترتله الملايين اليوم : « من خطوة خطوة يأتى الله بالفرج »

إنه تعبير آخر كتلك القصة التصويرية عن بنى الاستعمار التركى الذى جرم الناس حتى من رحابة الأمل . ١ وكان للأسقام والأفناء سياسة مرسومة كالسياسة المرسومة للأذلال ، ولكن ما صالح الاستعمار فى إذلال الناس بالعدة ، وإفنائهم بالجملة وهو فى حاجة إليهم ليعدموه ؟

والجواب على ذلك — أن سليمان بن سليم كان قد أصدر فرمان الذى جعل نفسه به المالك الأوحد لجميع أرض مصر — وهو لن يزرعها بيده طبعاً فأعطاهما ، للمتزمين ، نظير ضرائب فادحة لا تبقى للمتزمين سوى

بسكة الرمح ولكن هذا القليل المتبقى للملزمين لم ينبج من أطماع سليمان ، غير الحكيم ، فاشترط أن تؤول إليه جميع تركات المتوفين الذين لاعتقب لهم ولا وارت . وبقي هذا المرسوم نافذاً بعد خلافته ومماته .

ثم تطاول العهد ؛ فكان الباشوات الأتراك يجبون هذه التركات لأنفسهم وليرشوا بها السلطان أيضاً . فاشتد حرصهم على أن يموت أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهم الشروط . ١ وطبعاً لاسبيل لتمييزهم فأتاحوا للأوبئة أن تتخذ من بلادنا مزاراً ووطناً لتحقيق لهم الغرض الدنيء ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال ، ومن هذا الإحصاء المتواضع ندرك مبلغ ما كان بين الأوبئة وبين حكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف ١

ففي عام ١٥٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع مئة ألف نفس .

وفي عام ١٥٣٥ اجتاح مصر وباء صرع ثلثمائة ألف نفس .

وفي عام ١٥٥٠ اجتاح مصر طاعون خرب مائتين وثلاثين قرية .

وفي عام ١٧١١ اجتاح مصر طاعون اسماعيل ، وصرع مئتين ألفاً (١)

هذه الأوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آباءنا الأقدمين ، حملة ميكروبات ، ملوّهين والسقم توارثناها ، ولا تزال أرحام الأمهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوراثة ١

ونلاحظ أن الاستعمار الإنجليزي قد ورث فيما ورث عن سابقه هذه المؤامرة السفينة للتوحشة ، فساط علينا وباء الكوليرا في أعقاب الحرب حتى لا نجد قوة ثور بها في وجهه ، ورفض رجاء الحكومة المصرية في منع القيادة البريطانية عن بيع فضلات الطعام الملوّث بالأوبئة المتبل بالأمراض ، وحتى الوقت الذي نكتب فيه هذه الكلمات لا تزال

(١). تاريخ الحركة القومية — ج أول — عبد الرحمن الرافعي

بريطانيا ترفض حق مصر القانونى فى إنشاء محطة رقابة صحية بمنطقة « فايد »
كى تتمكن من إشراف صحى كامل على وسائل المواصلات فى تلك الأراضى
المصرية . ١

ولم تكن وسيلة الإذلال لدى الاستعمار التركى ، السوط وحده ، بل والسلوك
أيضاً ، فالوالى التركى ذو سلوك خاص مع الشعب ، سلوك يمتاز بالصلف والغطرسة
والتعالى ، وهو نوع السلوك الذى كان السلطان يعامل به الولاة والرعايا ،
فالسلاطين حين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون « . . . أما بعد ، فقد رأت
إرادتنا السنية الشاهانية (كذا) فإذا أردت اكتساب الملوكانية ، فتعال إلى
أعتابنا ، واقسم على طاعتنا والإخلاص لنا » ...

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسعى إلى أعتابه والقسم
بين يديه على الطاعة والإخلاص !

وهم إذا خاطبوا الشعب لا يوجهون الحديث إليه لهوان شأنه . بل يخاطبونه
بواسطة الباشوات قائلين : « بلغوا عبيد بابنا العالى » !

ثم لكى تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعايا ضربة لازب يعلنون فى
قعة أنهم « اعلناوا عرش أجدادهم الأجداد طبقاً للأوامر الواردة من ملك الملوك »
ولم يكن هناك ما يربطهم بملك الملوك جل شأنه سوى هذا الالتحال ، لقد راض
الاستعمار التركى رعاياه على الذل ، وراض ولاته على الزلف ، ويمثل الأخير
أصدق تمثيل خطاب الحديو توفيق المرفوع منه إلى الصدر الأعظم بمناسبة تعيينه
مكان والده الخلوع .

نحن الآن مع الصفحة « ٢١٦ » من الجزء الرابع لكتاب الكافي في تاريخ مصر ، وأبصارنا تقترب مشدوها لتقرأ :

« وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الأمر أن فراغ محسوبكم والذى المحترم عن الحكومة المصرية ، وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهد رقيقكم ها من مقتضى على إرادته السنية السلطانية ، وبالحقيقة أن تكرم حضرة صاحب الخلافة الأقدس الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهد هذا العبد كان دليلا على وجود عبدكم مشمولاً بفيض النظر الملوكانى . .

« فلذا رفعت إلى مقر إجابة الرب القدير أ كف الأدعية الخيرية ببقاء عمر ، وعافية ، وارتقاء شأن ، وشوكة الحضرة السلطانية . عالمنا علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعة للسلطنة السنية . . . » !!

من هذا الذى يتكلم ، ويكرر كلمة عبدكم ورقيقكم مرات عديدة . ؟ أهو فرد عادى من الشعب . ؟

أنه الخديو يئذل كرامته بسخاء ، لأن السلطان التركى لا يقنع بدون هذا الهوان من تابعيه وموظفيه . ونستطيع على ضوء هذا الخطاب أن نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته — إذا كان هذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه ونستطيع أيضا أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين « أتم عيد إحساناتنا » واختياره كلمة (عيد) بالذات . إنها عملية تعويض لاغير ، وهو فيها معذور ، لقد تواضع كثيراً للذين فوقه فلا بد أن يتقاضاه من الذين تحته ، من الجماهير والرعايا . !!

(و) الخداع بالدين . ١

ولم يترك الأتراك وسيلة يستغلون بها الرعايا إلا انتضوها وإذا كان شعبنا متدينا عميق الدين ، فقد استغلوا فيه هذه الفضيلة أسوأ استغلال فالسلطان سليمان الذى جرد الأمة من جميع أرضها وأملاكها ، جاد عليها بكثير من المساجد والكنائس التى بنساها . اوفى الوقت الذى وقع فيه فرمانا يجعله « المالك الحر لجميع أرض مصر » ، وقع فرمانا آخر هذا نصه « لا تخرج امرأة قط إلى الأسواق والشوارع ولو متنقبة إلا العجائز ، ومن تخالف تضرب ، وتربط من شعرها فى ذيل حمار ويطاف بها فى القاهرة » . وفرمانا ثالثاً : « نطلب من الناس جميعاً أن يسيروا بمقتضى الشريعة ،

ويعملوا بموجب السنة » ١

يا سبحان الله ! نهب وإقطاع ، ثم دعوة إلى القرآن والسنة . ١
عتو وفجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد . ١

هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك أحد . إن خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد . فحين ولى « نيرون » الإمبراطورية الرومانية قدمت إليه أوراق محكوم عليه بالإعدام لتوقيعها . فبكى ، بكى نيرون وصرخ : ليتنى ماتت الكتابة . ١ ولكنه فى الفصل الثانى من الرواية ، رواية حياته الآتية ، سفك دم أمه يمينه ، وأحرق روما وهو يقفه أمام مشهد صاحب من مشاهد الجحيم . إن الأحكام الأتراك لكذلك ، يؤمنون أول النهار ، ويكفرون آخره ، ويخدعون الشعب بمجاملة نزعة الدين فيه ثم يأكلون حرثه ونسله ، ويسومونه سوء العذاب .

والشعوب حين تبلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبد السلام يقرع الجرس ويبيع أمراء الممالك بالمزاد ، فإن عاقبة أمرها تكون خسرا ، وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لصر والعرب .

ألم تر مرة أو مرات . رجلا يشكو ويئن ، فيقول له صديقه متهاكبا
أو مسلما : ادع للسلطان بالنصر . ! إن لهذه الكلمة الدائغة قصة في تاريخنا
القديم والحديث .

فقد دخل «شيخ تركي» أحد المساجد ليخطب الجمعة في عهد بعض السلاطين
الأتراك ، فوجد المصلين جميعاً رقوداً يئنون . فسألهم عن سر هذه المظاهرة
الصامتة فأجابوه : أن الباشا هاجم بيوتنا ومعه «الشوباصي» والجند ، واتهبوا
ما فيها من حبوب وقوت زاعموا أنه سيرسلها إلى جيش السلطان . فسألهم
الشيخ : أليست جيوش السلطان تحارب الكفار ؟

أجابوا في سداجة : نعم !

قال الشيخ : إذن — ادعوا للسلطان بالنصر . !

وذهبت مثلاً . .

واقعد أفاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر فاستغل الدين ورجاله .
وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذا نصها :
« نصيحة من علماء الدين بمصر »

« . . نخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف
الأجنبية ، يحبون المسلمين وملتهم ، وهم أصحاب لمولانا السلطان . قائمون
بنصرته ، وأصدقاء ملازمون لمودته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه .
ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة
السلطان على أخذ بلاد اللوسكو إن شاء الله . . » !

إن استغلال الاستعمار التركي للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقاً . . بل
هو ثمرة خطة وأعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل . بل وكان الدين
نفسه مجنيا عليه فيها . وآية ذلك ما لا تزال نراه من التعصب ضد المرأة
باسم الدين ، فليس هذا من الإسلام في شيء . . ولكنها الخرافة الدينية

التي روجها الأتراك ، وأصدروا بها فرمانا ومرسوما .
وعلينا أن نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذي مر بنا آنفا ،
والذي حرم على المرأة أن تخرج لحاجتها ولو منتقبة ، ولئن تفعل تربط بشعرها
في ذيل حمار . ١

أهذا هو الإسلام الذي خاطب رسولہ النساء قائلا : « إن الله أذن لكن
أن تخرجن لحاجتكن » وأباح لهن الخروج حق بغير نقاب وحجاب ؟ لكن
أمة تعيش ثلاثمائة عام في ظل الجهالة التركية ، والتتبع التركي والسيطرة التركية
لا بد أن تشر ما تعانيه اليوم من رجعية وانحطاط وتعفن .. ١١١

لقد قال أحد الخلفاء الأتراك : « سأصنع بكم كما يصنع القيصر الروس
برعاياه » مخاطباً شعبه وشعوب مستعمراته . فماذا كان يصنع القيصر ؟
هنا سيتبين صدق قولنا ، إن استغلال الدين كان خطة مرسومة ، ولم
يكن مصادفة طارئة ، فقد كانت القيصر — أي قصر — بارعا في استغلال
دين بلاده .

وكان رجال الدين في الكنائس يصلون بالناس « صلاة القيصر »
أيها القيصر ، نحن عبيدك المخلصون . ١ يا ظل المسيح . ١ ويا روح
الحق . ١ نعش لخدمتك . ١ ونطيعك فيما تقول . ١ وهكذا أراد الأتراك
أن نعبدهم من دون الله ، وأفهمونا ، وهم يتولون الملك كابرأ عن كابرأ ،
أو صاغراً عن صاغر ، أنهم كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقاً للأوامر
الواردة من ملك الملوك » ... ١١

(ز) استعمار التركي — والمجهل :

وهذه الأمة التي لا تزال لطخة سوداء في وجه مصر أثر من أجد آثار
الاستعمار التركي ، وأحقها بالإشادة والتبويه ، فقد عاشت مصر أعوامها

الأمم محرومة من الثقافة والمعرفة ، ودبر الأتراك مؤامرة للأجهزة على لغة البلاد ، وأمعوا اللغة العربية « لغة الفلاحين » وكانت اللغة التركية لسان السادة والقصور ، ولا تزال مظاهر هذه الاستهانة بلغة البلاد ماثلة أمامنا — فعلى بعد خطوات منا ، وفي داخل القصور السعيدة المترفة — يعيش أقوام لا يعرفون عن لغتنا القومية شيئاً سوى أنها المصححة التي تتحرك بها شفاه الرعايا ، وتضطرب بها مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضاً . . . ! ولقد كانت مصر قبل استعمار الترك واحدة يأتلق فيها علماء نوابغ كابن إياس وابن خلكان والمقرئ وابن حجر وابن العميد والذهبي والدميري وابن نباتة وصاحب « صبح الأعشى » وسواهم ، كذلك كانت مهاجر الأحرار المفكرين حين يمسم في بلادهم نصب واضطهاد ، فقد هاجر إليها ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم وآخرون . فلما جن ليل الأتراك . وكان ليلاً بهماً . ران الجهل على البلاد وعاش قرير العين في رحى حلفائه وأصدقائه الأتراك .

ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشييعاً للجهل . ؟

هنا نلتقي بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا ، حيث تضيء لنا الطريق نظريته التي يرد بها جميع الظواهر والأشياء إلى أسباب علمية واقتصادية فلقد كان للمدارس أوقاف كثيرة يانعة . تلفت الأتراك نحوها ثم قالوا : يا ليت لنا هذا الطول العريض ، وما أسرع ما تتحقق لهم الأمنيات ، قهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا جميع المكتبات الكبرى التي كان الفاطميون قد خلفوها — وجاوز جشعهم واستكلاهم كل حد ، فاقتلعوا أبواب المدارس ، وأخشاب النوافذ والسقوف ثم باعوها . ! يقول علي باشا مبارك في « الخطط التوفيقية » ، أهمل أمر المدارس ، وامتدت يد الأطماع إلى أوقافها ، واحتجرت مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعاً

وانقطع التدريس فيها ، ويبحث كتبها وانتهت غفرت وصارت زرائب » .

لماذا تنبئ القبور ؟

هل تظن ، وأنت تقرأ هذه السطور ، وتستعرض بعض مشاهد الماضي أنك أمام عرض تاريخي ، أو حديث زجى به الفراغ ، ونملاً به الصفحات لا - أنت أمام عرض أجل ، وغاية أسى .

ونحن نبش قبر الاستعمار التركي حقاً لنكشف الأوتاد للطمورة تحت ترابه والتي لا تزال تصلنا بها سلاسل وأغلال . أن نشوء الجريمة يلقي ضوءاً ناصعاً على أطوار نمائها ، وعوامل تشبثها بالبقاء ، ونحن شعب تعيث فيه جرائم الاستبداد السياسى ، والاستغلال الاقتصادى ، والإقطاع المتفشى ، والرجعية المنحدرة ، وتحتل نفوسنا عقد غليظة تحملنا على الخنوع والعجز والاضطراب ، ويحجم فوق ظهورنا ماضٍ موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة ويعناقنا عن التقدم ، فليس لنا بد من تطهير آبارنا .

إن علماء الاجتماع يقررون أن « روح الأمة يسيطر على مصيرها ومستقبلها » .

وأمتنا . . ما هى ؟

أنها ليست جيلاً يقيم على أرضها ثم يزاور ويختفى ، بل هى تيار بشرى متساوق الموجات ، يجرى لا مستقر له . . وكل موجة فيه دافعة مدفوعة . مؤثرة متأثرة ، معطية آخذة . . وهى فى نقل تطورها تأخذ من ماضيها وتصب فى حاضرها ، وتتدفق نحو مستقبلها . وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضى فسنظل دائماً نعيش فى ذلك الماضى برجعيته وفساده . واستبداده . . وسيظل الشعب جاثياً تحت الأثقال التى أنقضت ظهره ، وهدمت قواه .

لا بد لنا من روح جديد مطهر من ذكريات الأخفاق والفشل . . تسويه
وتنفخ فيه ضرورات حاضرتنا ، وتبعات مستقبلنا . . وإذا لم نصنع فسنظل
امتداداً لظلمات الحكم التركي ، ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها أخطاء وأعباء
ماضيها . . وقطيعاً أبله ، يضطرب في المرعى القاحل ويدور . . يرى هشة العصا
فيتراكض . . ويصك الزحام بعضه يبعث فيتهارش . . والراعى هناك فوق
الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة . . وهو يقلب يديه البضتين
شرايح الشواء على المدفأة . . حتى إذا غص بطنه الكريم . . ألقى على القطيع
نظرة فاحصة . . واستل مكينه الخضبة ، وخاض بين قطيعه المطيع . . يتخير منه
ذبيحاً آخر ، لوجبة أخرى . . . ١١

فلنعادر الماضي :

إن هذا العرض « السيكولوجى » للحقبة التى قضيناها في قبضة الاستعمار
التركي لتكشف عن المأساة . . المأساة التى تتمثل في أننا — الدولة الشعب —
لا نزال نعيش في ذلك الماضى السحيق . . إن كل نصينا من التقدم ومزاملة
الزمن . . بل كل ما يربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور الأعوام .

فنحن نؤرخ لوجودنا الآن بعام « ١٩٥١ » بيد أننا نعيش في « ١٥١٧ »
حيث بدأ الاحتلال التركي ، فيما تلاه من أعوام وقرون . فالعجز السياسى .
الرجعية الاقتصادية . . الانهيار الحلقى والشعب المستسلم والحكم الأتقراطى . .
والفساد الإدارى . . والحريات المصادرة . . واستغلال الدين . . كل هذه الخطايا
تتفرق اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجترح بها في تلك القرون .

ودلالة هذه الحقيقة المؤسفة أننا لا نزال نعيش في ظل الاستعمار التركى . . صحيح
أن أشخاصه اختفت وطواها التراب . . ولكن أخلاقه وشعائره لا يزالان يشران

كل ما أثمره بالأمس من فساد . فأول أغلانا التي تصفدنا ، هذا الماضي . . .
فلنغادره ، ولنصنع لنا حاضراً جديداً بأسلاً ، وستكون فصول الكتاب الآتية
بمُشابة القنطرة التي تقترح إقامتها لنعبر عليها . . مغادرين هذا الظلام ، ميممين
أوجوهنا شطر حياة تستحق أن تسمى حياة .

والآن ، فألي ثانی أغلانا .

(٢) الاستعمار البريطاني :

إن الفساد التركي الذي أوجزناه في السطور السابقة . . كان القنطرة التي عبر
عليها إلينا الاستعمار الإنجليزي . وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الأوحيد
في بقاء الاستعمار الإنجليزي . فالأثنان مرتبطان نشوءاً ، وتطوراً وبقاءً ، وهذه
حقيقة يجب أن تملأ منا البصائر والأذهان .

عندما بدأت الامبراطورية الباغية - التركية - تترنح تحت وطأة الترف الذي
بددها ، والفن التي مزقتها . . كانت طبائع الأشياء تهيب بسيد جديد كي يتقدم
ليستولي علينا . . وكان هذا السيد هناك ، وراء الحوادث واقفاً يترقب .

لم يكن نابليون . . فقد ذهب محاولته في نفس الطريق الذي ذهبت فيه
محاولة لويس التاسع في القرن الثالث عشر . . بل كان هذا الناهب الجديد . .
بريطانيا .

لماذا دخلت بلادنا . ؟

لقد أعلن الجنرال «هتشنسون» بلسان حكومته أن القوات البريطانية جاءت
لثبیت سلطة الباب العالي ، إذن فالأترك هم الذين أدخلوهم ديارنا بعد أن قبلوا
حماية الإنجليز لهم من الفرنسيين أولاً ، ثم من الشعب ثانياً ، وأعلن الإنجليز
أنهم مسئولون عن حماية الباب العالي ومنافعه ونفوذه .

وقبل أن يغادروا مصر هذه المرة احتفروا وقيعه غائرة بين الأتراك الذين يدعون الحرص عليهم وبين المالك ، ثم أوعزوا إلى « محمد الألفى » أن يذهب إلى لندن ليطلب معونة الإنجليز وحمايتهم . ! وهذه هي اللعبة التي ظلت بريطانيا ولا تزال تلعبها لتبقى مصر منطقة نفوذ لها ، فقد تكررت في المؤامرة التي أوقعوا في حبالها « توفيق عرابي » ذهبوا يمثلون نفس الدور مع أحمد عرابي موعزين إليه أن يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقاً . فيحدثنا شاهد عيان هو « شاربيم بك » في الجزء الرابع من كتاب « الكافي » :

« . . . وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزي من أحمد عرابي أمام قصر عابدين في يومه المشهور وقال له : إن كنت تخشى شيئاً فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم ، وجميع مالكم من الرتب وألقاب الشرف . ا » ١

أرأينا . ؟ أنها نفس اللعبة القذرة التي دخلوا بها ، وعليها الآن يتكثرون ويرتكزون . . . ولقد أجاب عرابي جواباً جذيراً بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ، كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا وعيالتنا وأنت نفسك غريب تعيش في حفظنا حمايتنا . ا ١ » وأراد عرابي أن يبالغ في إحراجهم وإذلاله ، فقال :

« كيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها ومعكم فرنسا ، اسماعيل صديق باشا ، ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكأس التي شربها قهراً . ا ١ » .

إن عرابي يومذاك كان يمثل كل الوارثات النبيلة الأصيلة التي نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل . وماذا عليه لو دخل في حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع الآخرون . ؟ إن طبيته الأصيلة ترفض هذا الهوان .

الحكمة الثانية :

وسمع الإنجليز الفتنة وأججوها ، وتقدم ممثلهم في مصر من عرابي وسأله :
— ماذا تفعل إذا لم يجب مطالبك . .

أجاب : أقول كلمة ثانية .

— وما هي هذه الكلمة ؟

أجاب : أقولها عند القنوط .

وعمل الإنجليز على أن يقنط أحمد عرابي فحرضوا عليه الحديو وعندما قال
كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والأشلاء .

ثم كان منشور الحديو والخليفة التركي يتلى ويذاع مبشراً بعصيان عرابي ومن
معه . . ثم توالى المشاهد تترى في تناقض عنيف . .

فالحديوى توفيق يعود إلى عابدين من الأسكندرية . . . وأن موكب ليتهاوى
بين صفين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية . . . وفي نفس الوقت يدفع
أحمد عرابي بأعقاب البنادق إلى غرفة مظلمة في قشلاق قصر النيل . . والحديو
توفيق يشرف الوليمة الكبرى التي دعا إليها القوات البريطانية ويجلس بجوار
الدوق « أوف كانوت » تحت العلم البريطاني الذي يخفق خفقات التحدى
والازدراء . . حتى إذا فرغوا من الطعام قام بين عزف للموسيقى وقرع الطبول
ليقلد نيشان « النجمة المصرية » كل جندي إنجليزي شهد موقع كفر الدوار
والتل الكبير . .

وفي نفس الوقت كان أحمد عرابي هناك . . يستمع إلى عريضة الإتهام :
« يا أحمد عرابي - لقد أتوا بك أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان

والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك على هذه الخيانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى ، والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى ؟
ومشهد آخر . . .

فعلى جدران البيوت والشوارع ألصق هذا المنشور الكريم :

« إرادة سنية لكافة أهالى وسكان مصر »

لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى مالياً ومادياً ولا سيما بالنظر إلى قنال السويس ، فقد أخذت إلى عهدتها التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس حقوق السلطة السنية والامتيازات المصرية .

« ولتحققنا أن نيتها ومساعيها فى الظاهر والباطن ليست إلا الإصلاح . قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الإنجليزى بالتحويل نحو جموع العصاة ، واستعمال القوة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤوسهم .

« وبما أن العساكر الإنجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين فإنهم جديرون بالمعاونة والمساعدة . . . وعلى كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالإكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » ١ ؟

ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشى بمجلس الأمن صارخاً فى وجه بريطانيا : اخرجوا من ديارنا أيها المتطفلون . .

فتهض رجل عملاق فى برود وثبات وسخرية .. وأشار بيده كالسهم . . كأنه يرمى إلى تاريخ قريب وقال : أيها السيد .. إننا لم نتطفل على بلادكم .. ولسكننا دعينا فأجبنا الدعاء . . . ١

وأغلق النقراشى فيه . . . ودارت برأسه الكلمات . . . وصرخ فى أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شيء وأفاق . . . لو سارت الأمور كما يريد صرايى وتوفيق . . . أكان سيحدث هذا الذى حدث . . . ؟ من يدري ؟ . . . ولكن الإنجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا فى دخانها المتكاثف داخل بلادنا . وقد كان وهذا درس بليغ فلندكره حتى نعود إليه بعد حين .

الإنجليز وجيشنا :

قرر الإنجليز أن يكون استعمارهم قفصاً كبيراً يسجن فيه طموحنا وآمالنا . فرسموا من أول الأمر سياسة إضعاف الجيش - حتى نظل هوانا يسام - لاقوة تسم . ولذلك كان منشأ حقدهم على صرايى وتعجيلهم بتسديد الضربة إلى مصر ، محاولته النهوض بالجيش ، وإرباءه إلى ثمانية عشر ألفاً . ولذلك أيضاً رأيناهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على صرايى - واختصروه فى لواء صغير جميع ضباطه من الإنجليز . وعحوا العلوم الحربية والعسكرية كلها من المدرسة الحربية التى كانت تخرج لنا الضباط ، وهم الذين تمهدوا فى معاهدة سنة (١٩٣٦) بتسليح الجيش وقبل أن يحف مداد المعاهدة ، ويتلاشى من الأفق صدى طلقات المدافع الفرحة ، صدروا إلينا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيد العصفير . وهم الذين عثروا يوماً بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة فاقترضوها ، ثم أبوا أن يعيدوها حتى اليوم ، وهم الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا ثم امتنعوا عن بيعنا أسلحة قبلوا فعلاً أمانتها . وهم الذين فزعهم محاولتنا الأخيرة ، فجاءوا بإسرائيل لتحاربنا ونحاربها ، وفى قلب الملحمة تخلوا عن التزاماتهم حيالنا . لا عجالة لإسرائيل فحسب . بل لغرض آخر ، هو تعريض جيشنا لهزيمة ماحقة تذل كبريائه وتزلزل ثقة الأمة فيه ، وثقته بنفسه

ونحن على يقين ، أن تلك السرقات والآثام التي اندملت عليها حملة فلسطين - كانت بتدبيرهم غير المباشر وإغرائهم غير المرئي ، وتحريك مطامع الجناة وشهواتهم دون أن يعرف أحد حق الجناة أنفسهم ، المحرك الأول لهذه الشهوات ، وهي خطة هادفة أراد الإنجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد الهزيمة المادية التي كانوا مؤمنين بها ، وفي الوقت المعلوم ونحن ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء ، كشفوا الغطاء عن الحُبء الكريه وقالوا :
ها أنتم هؤلاء . . . !

إن سفارة انجليزية - غير رسمية - سفارة مجهولة تعمل في بلادنا عمل الجبارين لتصيناً بشر ما يمزقنا ، وهم في هدم الجيش يصدر عن سياسة تقليدية لهم أوصاهم بها (غلادستون) يوم قال : حذار أن تسلمحوا الجيش المعسرى . . . ؟

الانجليز . . . وحدثنا .

والإنجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا بقاءهم ثم حملوا الألفى على الاستنجد بهم - ليكون بقاؤهم مشروعاً من الجانبين - جانب السلطان وجانب للماليك .

والذين فرقوا بين توفيق وعرابي ليعودوا بجيوشهم ويحتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً مدبراً .

هؤلاء هم الذين أغروا سعداً بعدلى ، وعدلياً بسعد ، وأقاموا سياستهم على بث الحقد وتعميقه في نفوس بعض الزعماء على بعض ، وبعض الجماعات على بعض . ليس الخلاف في الرأي هو هدف الإنجليز ، فالخلاف في الرأي لا يضير

ولكنه الحق والحصومة واللد . . . وسنظل نضايها هذه الخصومات السود مادام
للإنجليز فينا نفوذ ، وهم حين يعجزون عن النفاذ إلى وحدة الأمة بإحدى
وسائلهم الكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكتثين . إن زعيمهم
« دزرائيلي » يناديهم من مكان غير بعيد :

« لا بأس بالغدر والكذب والوقعة ، إذا كانت هي الطريق » !

الإنجليز وحریتنا

ولقد اضطهدونا اضطهاداً موصولاً — ولا يزالون — وساموا حرية
الشعب سوء العذاب ، واضطعنوا لأنفسهم حثيات من الذين تجري في
ضروقتهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير وأحاطونا بمحصار قاس
ظلم ، فلا نتصل إلا بالدولة التي يختارونها ، ولا نصادق إلا من يصادقون
ولا نعادي إلا من يعادون حتى حرية البيع والشراء . حرموها علينا ،
ولقد اشتروا قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد ، وباعوه
على بعد خطوات منا بخمسين جنيهاً ، في السودان ! بل حتى حرية الاحتفاظ
بالعرض والشرف ، سلبوها منا ، ففي وزارة محمد محمود « باشا » الأخيرة ، هم
بالغاء البغاء شنعوا الإنجليز قائلين :

— وأين يقضى جنونا وطرم ١١٢٢٠٠

أي أنه لابد للدولة بعد أن استبيحت أرضها وسيادتها ، أن تقدم للغزاة
نساءها بنفس السماح الذي تقدم به غداها وكساءها . . . وقد يتكلف الإنجليز
اليوم التسامح والحلم ، لأننا صامتون ، ولكن هذه الأردية الكاذبة تخلفها
عنهم المقاومة حين تكون ، ففي ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة إلا اقترفوها ،

قتلوا ، وصلبوا الآذان ، وصلبوا العيون ، وهتكوا الأعراض في عريضة معدومة النظر . وكل الذي نعانيه اليوم من قهر واختناق . بقية من القوانين التي وضعوها ، والتي أوجحوا بها ، لتكبل حرية القول وحرية الرأي ، ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطاني يقف وراء كل إجراء شاذ تصدر به حريات الشعب وتسفه به رغباته ، وحين نتحدث عن واجبنا إزاء هذا الاستعمار في الفصل الأخير سترداد هذه الحقيقة تألقاً ونصوعاً .

(٣) البرلمان البرجوازي

إن الاستعمار البريطاني ذكي ، وهو ، وقد ورث مخلفات سلفه البغيض ، الاستعمار التركي ، حاول أن يصوغ هذه الأساليب القديمة في أخرى مستحدثة ، وأن يسكب الفساد القديم والبغى القديم والمكر القديم في قوارير جديدة ثم يقدمها لرعاياه شراباً سائفاً .

وإذا كانت الشهوات ، كما يقول أندريه مورو ، في حاجة إلى أجساد تنغمسها كي تعمل فإن الاستعمار البريطاني لم يقنع الأجساد ، بل تقصص النظم والقوانين كذلك ، فقد عاوننا على أن تكون لنا حياة نياية ، ولكنه وقد شهد ميلادها بل وساهم في خلقها ، صاغها كما يريد ، لا كما تريد ضروراتنا وطموحنا .

فالحياة النياية الانتهازية . والبرلمان الاقطاعي يوما ، والبرجوازي يوما آخر ، هو الغل الثالث الذي يقيد حياتنا ويستاق نموها . ونحن لانعني برلمانا بعينه ، ولا هيئة نياية بذاتها . نحن نعني روح هذا النظام التي تتقاصر دون حاجات الشعب ولا تسعفه بما يريد . فالأثرياء والمحظوظون لا يمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا خالفه الجوع والحرمان . ولكي نخلف من إثبات هذه الحقيقة

أولا : وثبت أن الذين يتحدثون من زمن بعيد باسم الفقراء . ليسوا . . . بل لم يكونوا ساعة واحدة من أعمارهم فقراء ، نطالع أسماء أعضاء أول مجلس نيابي ، ثم ماتلاه من مجالس وهيئات .

إن أول مجلس كان مجلس شورى النواب الذي تألف عام « ١٨٦٦ » . وكان ندوة للطبقة البرجوازية الرفيعة في البلاد . كان جميع الأعضاء من العمد ، وكان العمد يومذاك يمثلون الصف الثاني ، أما الصف الأول فالإقطاعيون الكبار . وأما الثالث فالشعب البائس المحروم .

فمديرية الغربية نجد ممثلها في المجلس من طراز أتربى بك أبو العز .
على كامل — عمدة القصرية :

الحاج شتا يوسف — عمدة أبي مندور .

الحاج محمد حمودة — عمدة برما الخ .

ومن مديرية النوفية نجد .

الحاج على الجزار — عمدة شين الكوم .

محمد افندي شعير — عمدة كفر عثما :

على أبو عمارة — عمدة مليج .

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب — عمدة القرين .

محمد افندي عفيفي — عمدة الزوامل .

عبد الله عياد — عمدة كفر عياد .

وعن أسيوط نجد :

عثمان غزالي — عمدة بني رزبح .

يوسف محمد عمر — عمدة الشيخ تمي

عبد العال موسى — عمدة دروة .

وهكذا عن بقية المديریات . . كلهم عهد وأعيان . (١)
 فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سنة ١٩٢٤ وكان أول هيئة نيابية
 دستورية ، وجدنا الباشوات والأعيان أيضاً .
 فاذا سرنا على الدرب ألقينا نسخاً لطبعة واحدة أو طبعات متعددة
 لكتاب واحد .

فتارة نلتقى مثلاً بأصحاب السعادة :

أحمد ذو الفقار باشا

أحمد زكى أبو السعود باشا

أحمد على باشا

إسماعيل سرى باشا

يوسيف خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بـ :

حسن شريف باشا

محمد أفلاطون باشا

محمد العبانى باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدر اوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بدءا الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من
 الباشوات والأعيان . فإذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة .

(١) عصر إسماعيل — عبد الرحمن الرافى بك .

وأما الآن أسماء خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ لهيئة برلمانية حديثة خمسة فقط يملكون ، ٦٥٠٠٠ فدان و ١٧ قيراطا .

ونحن طبعاً ، لانفكر حين نعرض هذه الظاهرة في التنديد بهيئاتنا النيابية ، ولا بأعضائها . وإنما نتساءل في ضوء هذا الواقع .

هل يمكن لهذه المنظمات النيابية أن تمثل شعباً تسعة أعشاره من الحفاة العراة ؟ هل يمكن أن يوافقها الأحساس الصادق بآلام الجماهير السكادحة ؟ هل يمكن أن تعمل لحرية الشعب وحقوقه كاملة ، وهي تعلم أن كل حظ من الحرية يناله ينقص من حرية الأعلين ، وكل حق يأخذه . يصيب ثراءهم العريض بالنحول . ؟

إن البرلمان البرجوازي ليس أكثر من تضامن الأعضاء مع الحزب الحاكم لتبادل المنافع والمآرب ، والحياة النيابية لا تكون حياة قوية نابضة إلا إذا كانت معبرة عن جميع خصائص الشعب .

وإننا لنجد من الواقع والتجربة ما يؤكد اعتقادنا بأن هذا التخطيط الذي أصابنا في الحقبة الأخيرة من حياتنا إنما يرجع لسوء تمثيل الحياة النيابية . وليس للحياة النيابية نفسها .

والآن نسأل :

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر في عهد إسماعيل برلمان قومي يمثل الشعب ولا يمثل حفنة من أصحاب المصالح والأطيان ؟

وخير جواب على هذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شوري النواب يومذاك يمثل ذوي المصالح والأطيان ؟

حدث أن اقترض إسماعيل :

(١) عام ١٨٦٤ - ٢٠٤٧٠ ر ٥ من الجنيهات بحجة مقاومة الطاعون البقرى ، ثم ترك الطاعون يعبث في البلاد والعباد .

(٢) واقترض عام ١٨٦٥ - ٣٠٠٣٨٧ ر ٣ من الجنيهات ليشيد بها قصر « ميركون » على ضفاف البسفور .

واقترض عام ١٨٦٦ - ٣٠٠٠٠ ر ٣ ليشترى بها أملاك الأميرين : مصطفى فاضل ، ومحمد عبد الحليم كي يتخاص من منافستهما له .

واقترض عام ١٨٧٠ - ٣٠٠٠٠ ر ٣ دفعها رشوة للاستانة كي يظفر بقلب « خديو » وسافر بيقيتها إلى باريس .

واقترض عام ١٨٧٠ - ١٤٢٨٦ ر ٧ لينشىء بها مصانع السكر الخاصة به . ويمد سكة حديد زراعية تربط أطيانه المتراصة بعضها ببعض

واقترض عام ١٨٧٣ - ٣٢٠٠٠ ر ٣ رهن قبلها بعض مصالح الحكومة وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضه ١٢٦٣٥٤ ر ١ من الجنيهات (١) .

حدثت هذه القروض المفجعة التي أروى بها إسماعيل هواء . وملاً الأرض قصورا - فشيّد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ، وقصر القبة ، وقصر حلوان وسراى الروضة ، وسراى الإسماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر رأس التين ، وعشرات أخرى سواها .

وحدث أن جاع الشعب . . لتشبع حفنة رديئة تعد على أصابع القدمين من

(١) عصر إسماعيل - الجزء الثانى عبد الرحمن الرافعى بك .

بطانة اسماعيل وحاشيته التي يحدثنا عبدالرحمن « بك » الراقى في كتابه - عصر اسماعيل - أنها كانت من الفرنسيين والإيطاليين الإنجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا في بلاط الخديو مرتعاً وملاذاً !

وحدث أن أزهق الشعب بالضرائب إرهاقاً منقطع النظير ، حتى جعل على الأغنام ضريبة . وعلى الحجر ضريبة . !

والآن : نعود فنسأل : ماذا كانت هيئاتنا النيابية ستصنع لو أنها تمثل جميع الشعب . وآلام الشعب ؟

كانت ستكره الحكومة يوم امتنع الإنجليز عن تسليم جيشنا على أن تتجه فوراً إلى دول أخرى نوع تلك الدول التي لجأت إليها إنجلترا وأمريكا يوماً ما .

كان سيحدث عندما نزل « شاهنشاه إيران » عن جميع أطيانه للشعب أن تسبق الحوادث التي قد تستجيش أحقاد الشعب ، فتطلب إلى آلهة الاقطاع في مصر أن يتشبهوا بالرجال ، ويردوا للأمة أرضها .

كان سيحدث عندما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفه أن مكاسب كازينو إيفيان للقمار قد زادت عام « ١٩٥٠ » ٧٠ ٪ عن الأعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الأغنياء الذين يذهبون إلى بحيرة إيفيان باحثين عن الأشياء المثيرة . أن يصرخ البرلمان في الحكومة . .

من هؤلاء الباشوات : : ؟ وكم من ملايين الجنيهات أخذوا معهم ليشتروا بها طهراً طيباً ؟

أفتعجز هنا عن أن نحاسب (باشوات) ، وهناك في بريطانيا يقف بعض

أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة أن تتحمل نفقات رحلة ملكي إنجلترا إلى جنوب أفريقيا : ولم يسكتوا حتى وافاهم وجد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه الخاص ؟ !

وكان سيحدث : عندما تقدمت الحكومة طالبة إقرار مشروع قانون يفضل بين الشعب القصر .

قانون يجعل القصر الملكي « منطقة حرام » ويحرم على الأمة أن تتحدث عن ملكها بغير تصريح من وزير ، أن ينتفض ويقول :

كيف يتحكم الوزير في شؤون القصر وأخباره فيجعل بعضها حلالا وبعضها الآخر حراما ؟ كان سيحدث أن يصرخ برلمان الشعب .

نحن مصر . . ومصر ترفض أن تحاصر أخبار ملكها ، مصر ترفض أي سور يقام بينها وبين عرشها . . مصر ترفض أن تتلقط أخبار الملك من أفواه الاذاعات الأجنبية للغرض ، والصحف المحرفة .

إن الله ذاته لم يحصل الحديث عنه حراما . . وأن أخبار الملك وتصرفاته « السامية » ليس فيها ما ينجس أو يريب . . حتى يضعها تحت رقابة وزير . . (١٩) وعندئذ كان هذا القانون سيلقى نفس المصير الذي لقيه قانون الاشتباه .

وكان سيحدث أن يطلب إلى الحكومة الوقوف الحاسم الصارم في وجه المهريين الذين هربوا أموال الأمة إلى سويسرا حتى انخفض سعر الجنية المصري بالسوق الحرة بنسبة ٢٥ ٪ في الصيف الماضي .

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء مسلحا ، وزجوا بالكثير من أبنائها في المعتقلات أن يقوم البرلمان نفسه بالثورة ويكره الحكومة

عليها ولكن أنى يكون ذلك ووراء كل هيئة نياية من هيثاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود عنها ، وتعمل من أجل بقائها وإتمامها ؟

كان سيحدث طوال هذه الأعوام التى قضيناها فى مفاوضات عابثة ، والتى وعدنا الاستعمار البريطانى خلالها بالجلاء مائة مرة ، ثم كذب علينا مائة مرة أن يجتمع أعضاء « البرلمان » أى برلمان — ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا أن جيوش بريطانيا الرابضة فى القنال ، جيوش معتدية يجب طردها ، ويقرروا أيضا أنه لا قيمة للحياة النياية تحت خفق الأعلام البريطانية . . . وإذن فليغلق البرلمان ، وليخرج أعضاؤه إلى الشوارع والتقى ليقودوا الشعب كله إلى معركة الحرية والاستقلال .

(٤) الغرائز الناقمة .

والآن . إلى القيد الرابع . وهو الغرائز الحاكمة المترتبة ، والحقيقة أن غرائزنا مجنى عليها . . وجانية . .

لقد جنينا عليها بالكظم ، والتعمر ، والاضطهاد . . فانقلبت إلى قوات شريرة شرسة حين تفزع . وإلى مخدر مشيط منيع حين تهيج . وقبل الاستطراد فى الحديث عنها نسأل : ما الغريزة . ؟ يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطرى خاص يقوم به صاحبه فى ظروف خاصة . أو هي . . ميل فطرى يحمل صاحبه على عمل أو أعمال خاصة عند ظهور مؤثر خاص . ويضربون لنا مثلا — الغضب — أنه استعداد جسمى عقلى موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتعرض به عسكو معتد ، أو طاغية أثيم ، ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الإرادة الكامنة وراء كل عمل يأتيه الفرد أو الجماعة ، نعم الغرائز إرادة ، وبقدر ماتسكبت غرائز شعب تكبت إرادته ، وتطمح حياته ، ودراسة التاريخ

الإنسانى تزكى اعتقاد المعتقدين بأنها قوة قاهرة ، بالغة أمرها . لا تنال منها الهزيمة منالا وهي حين يختفى نشاطها في سورة كبت أو ضغط فليس هذا دليل انصراعها بل تكون آتية في دور تهيؤ للاتقاض والانتقام إنها راسخة رسوخ النوع الإنسانى ، وفطرية تجري من البشرية كلها مجرى الدم ومريدة لاراد لمشيئها وضرورية لبقاء الفرد والنوع معا .

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعليمها وتقويمها .
أنها قوى الالهام والابداع ، ولكننا دائماً في مصر والشرق نسيء بها الظنون — شائناً مع كل شيء نجعله أو تهية ، ونمضى نظاردها ونخنقها — دون ما ندرى أننا نظارد الحياة ونخنق فيها إرادة الحياة .

وقد يحسبنا القارىء مسرفين حين نقول « إن تحرير أنفسنا : وتحرير أوطاننا : وتحرير عقولنا . كل هذا منوط بادىء الأمر بتحرير غرائزنا . بيد أنه لن يلبث خلال مزاملته هذه السطور أن يفيء إلى هذا الرأى : ويسرف مع المسرفين ... ١١

والآن . لى نستبين قيع الغريزة . وأثرها في الحضارة الإنسانية نصرب مثلاً غريزة الخوف .

فلقد أنشأنا المدارس — خوفاً من الجهل .
ووضعنا الدساتير — خوفاً من الاستبداد .
وأقمنا الحكومات — خوفاً من الفوضى .
وأنشأنا المستشفيات ، ونبغنا في علوم الطب — خوفاً من المرض .
وأقمنا المصانع والمخترعات — خوفاً من العوز .
وتعلمنا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل — خوفاً من الله .

وهكذا أفضت بنا غريزة واحدة - هي غريزة الخوف إلى هرب باذخ من الثروة المادية والأدبية - ولكن شعبنا العاني ، تعاني غرائزه محنة لا تطاق ، هي نفس المحنة التي يعانيها الشعب من كبت وحرمان - وكثيراً ما يتبادر إلى بعض الأذهان أن إطلاق الغرائز معناه العريضة والفجور .

وهذا أثر وهم موروث ، وجهالة مزمنة ، فأطلاق الغرائز يعني إطلاق القوى الهائلة التي أودعت فينا لتعمل وتثمر .

وهذا الكتاب يضيق حجمه ، وتضيق أغراضه عن حديث مسهب مستفيض في الغرائز ، وهو يحصر حديثه عنها في بعضها الذي تتمثل في كبت مشاكلنا السياسية والقومية .

ونعني بهذا البعض .

غريزة الغضب .

غريزة النفور .

غريزة الاقتناء .

غريزة « أنا » . . . وتشمل حب الشئ وحب الظهور .

نزعة « المشاركة الوجدانية » .

فهذه الغرائز ، وأخواتها عامل أساسي في طبيعتنا ، وهي تسمو ، أو تنحط تبعاً للغاية التي تجند لها ، والوجه الذي تستخدم فيه .

ولكن انحطاطها يكون مؤكداً ومضموناً إذا وكل إلى القهر أمر تهذيبها فإذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرّم عليه أن ينفر مما يكره ، وحرّم عليه أن يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرّم عليه أن يمتلك ويقتني . . فلماذا يعيش ؟
ولنبداً بـ :

(١) غريزة الغضب :

إن وظيفتها المحافظة على النفس .

ومثيرها - وجود العدو .

والعدو المثير لها في الجماعات هو - الاستعمار ، والاستبداد والقوانين المعتسفة والاستعباد الاقتصادي ، إذا وجد شيء من هذه ، أو جميعها في شعب فذروه يغضب ، أن غضبه هذا صمام الأمان - ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة إطفاء النار بقاذفات اللهب . ولنا بذلك ندعو إلى شعب أو فتنة - بل إلى سكيئة وسلام ، وإعما دعاة الفتنة والثورة بحقهم أولئك الذين يتحدون طبائع الأشياء ، ويحاربونها بقانون ، وما أحوج هؤلاء الغلاظ إلى درس في التاريخ ، ليعلموا أنه كان وراء كل ثورة كاسحة واتقلاب مدمر ، وإعصار وييل ، ركام هائل كثيف من القوانين حسبوها زاجرة قاهرة فإذا هي وقود الثورة وحطب الانقلاب : . لقد ساهمت أحزابنا جميعاً ، وحكوماتنا جميعاً في قمع هذه الغريزة لدى الشعب فماذا حدث ؟

حدث أن ترنحت بادیء الأمر تحت الضربات المتساقطة فوقها كالرجوم فمجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل . . ثم استيقظت - فإذا طاقتها جميعها قد استحالت إلى حقد أسود على الدين اضطهدوها . . وهم للأسف مواطنون من ساسة وحكام . . ولو تواصلت حكوماتنا بغريزة الغضب خيراً لحدث النقيض . . كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة إلى المستعمر ، فتلفظه من بلادنا ، ثم إذا لم تجد منا رهقاً ولا إعناتاً تتسرب في مجال نافع ، وتعب عن نفسها بمقاتلة العجز ، ومباراة الطبيعة لاستثمار أرضنا وسمائنا ، وأنه لمن دواعي الأسف والفجعة - أن يقدر الانجليز هذه الغريزة قدرها ، ويتوسلوا بحسن التفاعل

معه إلى بقاء استعمارهم وتنحية أحقادنا عنه . فحين استجاش حفاظنا حادث
دنشواى تركونا نغلى كغلى اللحم ، حتى إذا أوشك البخار الحبيس على التفجر
والانقذاف رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء .

وكان ذلك الغطاء - كرومر ، فنقلوه من مصر .

ولما وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا الكظيم من حادث
٤ فبراير - يتراكم ويتجمع ويتحفز .. وأرجع الاناء بالبخار المحتاج - خطوا نحوه
خطوة . . . ورفعوا الغطاء .

وكان هذه المرة : كليرن .

ولكن حكامنا - كباراً وصغاراً - لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا يريدون
أن يعرفوا اللحظة التي يجب أن يرفع فيها الغطاء ! لقد كبلت هذه الغريزة وكبلنا
معه - بمجموعة من القوانين ، وبالإرهاب الموصول - فما أخرج من هذه القيود؟
عندما نتحدث في الفصل القادم عن الحرية سنبسط الطريق لتحرير هذه
الغرائز العاملة المنشئة - أما هنا فنحن فقط نعدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب
على ذلك من مخاطر وآثار . . . إن حكوماتنا (١) من طراز عجيب .

فهي تبطش بنا مع الباطشين ، وتقول : حذار أن تغضبوا .

وهي تدعنا نهب السارقين والناهبين ، وتقول حذار أن تغضبوا .

وهي تسلبنا حرياتنا وتقول : ويل لكم أن تغضبوا .

وهي تسلبنا الحلم ، وتحرم علينا الغضب . ! حتى أصبحنا تعصف بنا الحوادث

(١) المعنى بهذا الحديث طبقاً لحكومات ما قبل الثورة .

وتذروننا ربح العذاب ، وتصنعنا قوى الشر بأيديها ، وتركنا بأقدامها ، فنرفع
أبصارنا الحاشعة الدليلة تجاه السماء ، فتبصق السماء عليها ثم تردها إلى الأرض
دامعة خجلى . أولا يذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا قارعة
فيستصرخوا بالشعب ، ويخرجوا له كل يوم نداء وبياناً ، فلا ينظر ، ولا يسمع
ولا يجيب ، ولا يغنى عنهم شيئاً ! !

أنهم المومنون ، فهم الذين أخرجوا فيه صبيحة الغريزة بقوانين القهر التي
سأهموا جميعاً في خلقها ، وأحالوا طاقتها إلى حقد عليهم ، وعلى كل المعانى التي
يمثلونها ، والقوى التي يساندونها . لقد نصبت حكومة عراقية مشانق الإعدام
لشباب باسل حر غضب من أجل بلاده على الإنجليز المستعمرين - والإنجليز
المستعمرين . ودقت حكومة اليمن أعناق مواطنين غضبوا من ضلال الاستبداد ،
وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير . . وأقامت حكومة لبنانية من نفسها خصماً
وحكماً ، وأهدرت حياة شباب غضب من البرجعية السياسية التي تريد أن تلف
الشعوب في مثل الضباب . !

ومثل ذلك في سوريا ، وأمثال ذلك في الحجاز^(١) ، ثم يراد من تلك الشعوب
المقهورة العرائز وقد هاض قلبها جبروت سادتها ، ورهبوت قادتها أن تغاضب
المستعمرة وتجاهله ؟ .

إن كل سياسى يكبل غريزة الغضب في أمته بالإرهاب والقوانين الحشائنة
أعظم . وأفالك أئيم .

(١) يلاحظ أننا نعيد طبع الكتاب وفقاً لنصوص طبعاته الأولى والثانية والثالثة
التي صدرت عام ١٩٥١ بدون تغيير وهذا الحوادث التي رصدناها من أعمال حكومات
ذلك الحين وما قبله . . .

والحديث عن الغضب كغريزة واجبة الاحترام والرعاية ، حديث يلتبس فيه الحق بالباطل عند فئات من الناس ، وقد يبارك هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقتله . وقد يفضلون فينعتوننا بالإلحاد لأننا ندافع عن الغضب كغريزة ، بينما الدين يستهجنه كلهم وجريمة . وعفا الله عنهم - سلفاً - وإنهم لمخطئون ! فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك بمعنى أن الإسراف في كليهما خطأ وفراغ . ثم هو ينهى عن الغضب الفردي الذي يشبه التعرش بحق شخصي يمكن حمايته بالتودد والرفق ، ثم هو أيضاً يعنى باستهجان الغضب - التماذي والتطرف ، وإزجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان . ولكنه لا ينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادئة لصيانة حرمة الشعب وحقوق الجماعات ،

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط ، فإذا انتهكت لله حرمة ، فلا أحد أشد منه غضباً » إن حرمة الشعب كحرمة الله - فحين تنتهك ، وتتسورها الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجباً . ولقد غضب الله ذاته في موقف مشابه ؛ فحين جابه أبو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك ، ألهذا جمعتنا ؟ تقاذف الوحي في سرعة البرق ، ورجم الصواعق .

« تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب . . . »

فإذا قام في الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ، ويعتبه ، كان جزاؤه زجراً وإعناتاً .

(ب) غريزة النفور ..

ومن الغرائز التي حرم الشعب من نشاطها للنشء ، وانكفأت من طول اضطرادها تعمل منده ، لامعه - غريزة النفور .

وإننا لنسأل : هل يمكن أن يساق الإنسان إلى طعام كريه ؟
 هل يمكن أن يقبل مختاراً على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه ؟ إننا ندعو
 الحاكمين أن يجربوا ذلك ، ولو مرة .

خذوا لقمة عفنة ، أو حشرة دسمة ، وضعوها في أفواهكم وامضغوها وتامظوا
 بها ، واستحلبوها ، ثم انظروا ما سيحدث . سيحدث طبعاً تفرز ونفور وغشيان .
 وإذا دلف اللعاب إلى الجوف بشيء من هذه الطعمة الكريهة فسترفضها الأمعاء
 في عنف فيحدث تبحشؤ وقىء .

إن هذا الطعام المقدوف - يصور لنا قوة الغريزة بوجه عام - وغريزة
 النفور بوجه خاص . . ويدل في معناه العميق - على أن النفس البشرية ترفض
 بمثل الطريقة التي ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل إرادة
 تسكب حرقتها ، وكل مستوى معيشي يزرى بآدميتها . . وأن ضمير الشعب ينفر
 من كل جور ، وغدر ، وتفاهة . . ولكن شعبنا الأسيف محرم عليه أن ينفر ،
 ومحرم على غريزة النفور أن تؤدي وظيفتها .

مطلوب من الجماهير أن تبسط يدها إلى اللقمة العفنة ، أو الحشرة الدسمة . .
 ثم تدمسها في فمها ، وتستحلبها كما تفعل بأي شيء حلو للذيد . . .
 أي فارق بين هذا ، وبين إكراهها على نظم لا تريدها ، وأوضاع لا ترضاها
 وأشباح غريبة لا تعرفها ولا تألفها . . أي فارق بينه ، وبين تجرعها المظالم
 المريرة المتمثلة في حكم الفرد . والاقطاع الفاحش والرجعية الراكضة . وإلام
 نعزو هذا التعفن والبلى والجمود في حياتنا السياسية . والاجتماعية ، والاقتصادية ؟
 ولكن قبل ذلك ، هل في حياتنا هذه تعفن ، وبلى ، وجمود . ؟ نعم ، وأكثر
 من نعم . ! نعم ، رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنائات السامقة ، رغم تلك
 العربات الفاخرة والحفلات الساهرة ، فما هذه وحدها مظاهر البعث والتجديد ؟

إن بعث الأمة ونشورها يتمثلان قبل كل شيء في تجديد حياتها السياسية ونظمها الاقتصادية، ومسايرتها ركب الحضارة وموكب الأيام ، لقد رأينا في بداية هذا الفصل كيف كانت سياستنا ، واقتصادياتنا ومجتمعنا ، وهي صورة حياتنا المائلة ، مخلوطة ببعض الألوان الزاهية الملتصقة .

ماذا طرأ علينا من تغير وتطور .

كنا بالأمس « عبيد الباب العالي » ونحن اليوم - عبيد الحزب الحاكم .
كنا بالأمس نعيش في بلادنا « ملتزمين » وكان السلطان هو « المالك الحر لجميع أرض مصر » . ونحن اليوم نعيش أيضاً « ملتزمين » وعشرات الأسر والبيوتات هي « المالك الحر لجميع أرض مصر » .

كنا بالأمس لانملك نقد الوالى ولا معارضته ولا تقويمه . ونحن اليوم لانملك نقد الحاكم ولا تقويمه .

كنا بالأمس ضحايا النهب . والرشوة ، والاستغلال . ونحن اليوم كذلك أيضاً .

كنا بالأمس نجحد بالسياط ، وليس فينا برلمان .. ونحن اليوم نجحد بالسياط . وفينا برلمان .

كنا بالأمس مسلوبى الحرية ، والإرادة . وليس لنا دستور ، ونحن اليوم مسلوبو الحرية . والإرادة ، والكرامة . ومعنا دستور .

كنا بالأمس أمة مستعمرة بإكراه . ونحن اليوم أمة مستعمرة بمعاهدة .

كنا بالأمس أمة تربيص بأعدائها . ونحن اليوم أمة تربيص بنفسها .

كنا بالأمس شعباً تلهيه السياط فيتقاذف إلى أمام . . ونحن اليوم شعب
تلهيه السياط . فترا كض إلى وراء ! .

كنا بالأمس نقبل أقدام سادتنا ونعتذر لأنفسنا ، بأنهم وضعوا فيها قلوبهم .
ونحن اليوم نقبل أقدامهم ، ونعتذر بأنهم وضعوا فيها قلوبنا !

كنا بالأمس أمة معزولة عن العالم . لاتعتمد إلا على نفسها ونحن اليوم
أمة في « هيئة الأمم » تعتمد على غيرها . بل على أعدائها !

هذه حقائق أمرنا . في أمسنا ويومنا . أما ما وراء ذلك من زينة وزخرف
فليس أكثر من طلاء أردناه ليستر مقابح الماضي الذي نعيش اليوم فيه ،
فازداد نساءة وبيانا . !

ونعود نسأل : إلى أي شيء نمزو هذا البلى والانحطاط والجمود . !
إنه في نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور في المجتمع ، وتحويل طاقتها الهادفة
إلى نكوص واضطراب . فدور هذه الغريزة في التطور الإنساني من أهم الأدوار
وأخطرها وبها يتأتى التجديد المستمر والإنشاء والإبداع .

فنفور الإنسانية من الدابة ، حضرها إلى اختراع العرب ، فالقطار ، فالطائرة .
ونفورها من حياة البادية والكوخ دفعها إلى إنشاء المدينة وتشيد القصور
ونفورها من الظلم أفضى بها إلى العدل .

ونفورها من الاتوقراطية دفعها إلى الديموقراطية .

ونفورها من الاستعمار قذفها نحو الحرية .

ونفورها من الاستغلال أدى إلى الاشتراكية .

ونفورها من الاتقراض حتم عليها المسيرة .

ونفورها من الحرب دفعها لنشيدان السلام .

فلو أننا أطلقنا سراح هذه الغريزة ، وتركناها تؤدي الدور الذي وجدت لأدائه ، وعاوناتها في نضالها . لسكنا اليوم أمة أخرى .

إن الحكم المطلق يعتمد في عمله لبقائه على إضعاف هذه الغريزة لموت في الشعب كل إحساس بالمساواة وتبديد كل محاولة للنفور أو التغيير . فالشعب الذي تحول فيه طاقة هذه الغريزة عن وجهتها - يصير مأساة مفردة و كارثة متفوقة .

لأنه يقع به الظلم ؛ فلا ينفر منه إلى العدل . وتمضه الفاقة ؛ فلا يفر منها إلى الرغد . وتهوى على ظهره الشياطين فيزداد انحناء لتلقيها . وتسلب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه ؛ فلا يقلب كفيه على ما أنفق فيها . .

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين إنهم لا يريدون شيئاً آخر سواه . وإذا كنا اليوم نريد لبلادنا تجدداً وانبعاثاً ؛ فلنفض عن غريزة النفور وعن أخواتها - قيودها الظالمة ، وأغلالها الآثمة .

(ج) غريزة أنا :

منذ ثلاث عشرة سنة تقريباً ، كنت أستمع مع جمع غفير ، إلى محاضرة قيمة ، كان يلقيها الأستاذ محمد توفيق دياب . وكان من عباراتها كلمات لا تنسى :

« . انظروا فيما حولكم من الأمم ، تروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول : أنا انجلترا .. والفرنسى يقول : أنا فرنسا .. والألماني يقول : أنا ألمانيا .. فمضى نستمع للمصرى يقول : أنا مصر .. ؟

سمعت هذه الكلمات في ناشئة العمر وحادثة السن ، وظل العقل الباطن أميناً عليها حفيظاً لها ، حتى وجدتتها تبرز الآن في خاطري على غير موعد أو انتظار . ونحيت الورق جانباً ، وشرعت أتصور مرة أخرى ذلك المشهد في قاعة

«الليسيه فرانسيه» . وطى مسرح القاعة ، وقف الرجل كأنه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال . . وإلى تجاهه جلس حشد من المستمعين تسمه الكلمات مس الكهرباء فيجلجل ويصيح ، ثم عدت إلى الساعة التي أنا فيها وساءلت نفسي ، ترى هل استطاع المصري بعد هذه الأعوام أن يقول : أنا مصر ؟ أم هي أمنية من الأمنى والأحلام .. ؟؟

إن غريزة حب الذات وتوكيدها إحدى الغرائز التي وقعت في أسر الظلمات - وحيل بين الشعب وبينها كما حيل بينها وبين طاقتها ، ووجهتها .

إنها سليقة من أنبل وأنفع سلائق الإنسانية . والذين تأمروا عليها في بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد ، بل ومعهم - أو ربما قبلهم - رجال الدين الذين لا يفقهون الدين ، ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية .

فقد مضى هؤلاء وأولئك يلقنون الناس أن احتقار النفس وبغضها ونسيانها هو الهدى والفلاح وقالوا لهم . فيما قالوه ، إن الله لم يطرد إبليس من الجنة إلا من أجل كلمة واحدة قالها هي : أنا .

وهناك أطنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الأفكار الرديئة المدبرة وينسى أولئك المربون والعلمون أن الرسول قال : « أنا سيد ولد آدم ولا خفر » قالها دون أن تنقص من تواضعه شيئاً .

إننا شعب مستضعف ، لأن فيه ضعفاً ، ومستعبد ، لأنه يحس العبودية ويركن إليها .

وسر ذلك إطفاء إحساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع «غريزة» الأنانية المستنيرة الرشيدة فيه .

وهذا الموظف البسيط الذي يرتجف أمام رئيسه ، يمثله في نطاق أوسع ، الأمة كلها عندما ترتجف أمام مدتها ومستعمرها ، وتمثله أيضاً عندما تنهوى

تحت مواد القوانين الزاجرة الرابعة دون أن تملك إزاءها حولا . وتمثله حين
تباع شخصيتها وتتلشى في كل فكرة تطرق بابها ، وكل دعوة تستثير حماسها ،
وكل استثمار يزور ديارها دون أن يكون لها عاصم من ريث وأناة .

وتمثله كذلك حين تنهات على إرضاء حاكمها . وتهتف بحياة قاتليها !
لقد كان أعجب ما صادفني وأنا أقرأ تاريخ أمي أن سلطانها - الحاكم بأمر
الله - ادعى الألوهية أيام أصابه من الغرور والجنون وأمر بإعداد « سجل
تشريفات » ليستقبل أسماء المهشين للحاكم ، والمباركين الوهته البلهاء .

ولم تغرب شمس اليوم الأول حتى كان دفتر التشريفات قد غص ، وازدحمت
صفحاته بتوقيعات وبصمات سبعة وعشرين ألفا من الشعب المبرور !

ثم رجعت البصر إلى عصرنا هذا الذي نعيشه ، فوجدت نفس المشهد يتكرر
مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم ، بل وجدت مائة ألف أو يزيدون ينتظمون
للموظف والعامل والجامعي المثقف يستقبلون (كليرن) بعاصفة من التصفيق تصم
الآذان ، وهو يطل عليهم من شرفة مجلس وزارثنا كأنه القمر ليلة البدر !

ثم وجدتهم يحملونه على الرؤس والأعناق . كل ذلك صبيحة الأمسية الظلماء
التي اقترف فيها - ببشالة نادرة - جريمته وحصاره ، لو كان هذا الشعب تعلم من
زمان ، أن يقول : أنا ، وجرت من روخه وعصبه وكيانه مجرى الدم ، لنهض
في إهابه كائن من الحرية والكرامة والكبرياء يترفع عن كل صغار ، ويستعصى
على كل إغراء وإذلال .

(د) غريزة الاقتناء :

عندما كان الأتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد ولاتهم فلاحا
امتنع عن دفع المكوس المفروضة . وسأله :

— لماذا لم تدفع المكوس أيها القلاح ؟

فأجابه : لقد دفعت كثيرا ياسبدي حق لم يبق لدى ما أدفعه . وإن أرضي لم تغل هذا العام شيئا !

وغص الباشا التركي بياض المتكلم في كلمة « أرضي » وانتفض من مقعده ولطم القلاح المصري على وجهه وقال :

— وأيضا تقول أرضي . إنها أرض السلطان وأتم عبيده ومواليه !

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها . وحل بديلها غريزة الحرمان . أو نقول دون أن يكون في التعبير تجاوز :

إن هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركي الذي قبعنا في ظلماته ثلاثمائة عام ثم لا تزال تجوع . فإذا كان السلطان التركي الذي يملك جميع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت . فقل حل مكانه عصابة من الاقطاعيين تملك البلاد والعباد والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها . وثمار كدها وكسدها ؛ أو أن تملكها الدولة لحسابها ، يكون ذلك وأدأ وقتلا لغريزة من أهم الغرائز اتصالا بوجودها وبقائها وسلامتها .

إن في الفرد غريزة الاقتناء والتملك ، تظهر في دور الطفولة — قترانا نجمع اللعب وتقتنيها ، ثم تصاحبنا في أطوار حياتنا جميعا وتختلف حالها الوجدانية لدى الناس ، فإذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد وكافة الأشياء التي تتيح لصاحبها حياة رغدة تقوم على التكافؤ لا على الأنانية والشره والعدوان ، وإذا كانت جشعة مفترسة تعظرت في اقتطاع الأرض ، واقتناء التفتيش وابتزاز الحقوق والأموال .

وفي بلادنا هذه — يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضد الطبائع

الإنسانية ، لأنها تحرم الاحتلاك وتهدم بذلك غريزة إنسانية عاملة . . يقولون هذا ثم يتحدثون هذه الغريزة ويضطهدونها ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك ؟ !

أتراهم إذن شيوعيين ؟ قد يعارضوننا متسائلين ألسنا نتيح للناس أن يقتنوا ثياباً ، ويملكوا بيوتاً ، وحيوانات ؟

ونجيبهم . نعم . والشيوعية أيضاً تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك ولكننا نريد حقنا في هذه الأرض التي سقتها وسوتها سواعد آباء لنا كابدوا فيها الهول والشقاء ، وكان كل عزائهم أنها ستصير لأحفادهم مثابة ورزقا .

لقد سقنا في كتابنا الأول — من هنا .. نبدأ — الإحصاء الرسمي الناطق بأن أكثر من ستة عشر مليوناً في هذا الشعب لا يملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم !

ولقد كانت خطورة المسألة تبدو هناك في المخاطر التي يفضي إليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملك كل شيء — ومن يفقدون كل شيء .

بيد أنها هنا تبدو أمام بصائرنا أشد تجهما وعبوساً وفضاعة . فهي كما نرى الآن تتصل بغرائزنا التي أقامها الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا أنها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام ، وكغريزة الجنس ليس لها علاج سوى اللقاء أنها كذلك ، ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوق قبل الدولة التي سمحت لي بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى في العمل من أجلها . فإذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها — فإنها كأي غريزة أخرى — لن تفي . بل ستغير اتجاهها وتنتقم لنفسها ، وبدلاً من أن ينساب نشاطها في الأيناع والتعمير سيبتفجر في التفويض والتدمير .

(هـ) المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مساك الوحدة وقوام التكتل في الأمم والجماعات ، وإذا أدركنا بصائرنا في شعبنا فوجدناه مرقا وأشتاتا وألقيناه خالي الشعور خافت الصيحة فلأن حكوماتنا المتعاقبة ، والاستعمار المجهز من ورأها ، قد أفسدوا عليه أسمى نفعاته وأنفعها . تلك هي « المشاركة الوجدانية » ..

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من أجل تعاطف الشعب وتضامنه بعضه مع بعض ؛ بل قبل ذلك من أجل وتضامنه مع الحكومة ، وتضامن حكومته معه في الالتزامات ، إنها حين تستقيم تسيير صمام الأمان الذي يجنب المجتمع عدوان الدولة . ويجنب الدولة انتفاض المجتمع ، ويؤلف بينها ، ويؤاخي بين ما لكل منها من مشاعر وخطط وأهداف ليتحركا معا صفا واحدا نحو الغايات التي اختارها وآثرا العمل لها . ولا يمكن قط أن تقول أمة : إنني بدأت المسير إلى المجد ، قبل أن يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضامن والترابط والمشاركة ولأن الاستعمار لا يريد لنا أن نسير ، فقد استغل هذه النزعة وتوسل بأضعافها وإرهاقها وتضليلها لبلوغ كل ما يريد لبلادنا من ذلة وانكسار وفرقة لطلالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لإنهاضا وعرعتها حين كان يدعو إلى التجمع ويحذر من التخادل والعزلة ويقول : إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية وحين جعل مثل الجماعة المتكاثفة كتل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالجى والسهر . وحين أخبر أن أبعد الناس عن قلبه ، وأبغضهم إليه هم المفرقون بين الأحبة ، المشاءون بين الناس بالنميمة ، وحين ألزم نفسه يوم كان المستول عن أمته وجماعته أن يكون أول جائع إذا جاع الناس ، وآخر من يأكل ، إذا وجد الناس . وحين رفض إيمان كل رجل يبيت شعبان ، وجاره طأو بطنه على جوع . أو المشاركة الوجدانية في الأمة هي عصبها وغدها وسبب النماء والقوة فيها .

يقول ماك دوجل : « .. إنها الحالة الانفعالية والوجدانية التي تحدث عند الإنسان عندما يجد إنساناً آخر متأثراً ، فتجعله يشعر بنفس شعوره . كما لو كان قد انتقل هذا الشعور إليه بطريق العدوى » . ومعنى هذه العبارة في دلالتها الواسعة ، أنها التيار الذي ينتظم مشاعر الملايين ويتجه بها في خط طول واحد إلى حيث يؤدي غرضه على أكمل صورة وأتمها ، وإذا عجزنا عن الاستنجاذ بما في إنسانيتنا من حوافز ، فلتعلم من الحيوان . أنه قادر على أن يهدينا سواء السبيل . ١

يقول العالم الألماني كهلر^(١) : « .. إن قرود المزرعة كلها كانت تندفع نحو أي شئبانزي صغير وتعانقه الواحد ، تلو الآخر ، بمجرد سماع صرخة واحدة تند عنه .. » .

ويقول العالم الأمريكي هولز : « .. إن جماعة النمل والنحل ، وكثيراً من الحشرات يظهر عليها الغضب ، حين ينضب واحد منها لسبب ما . فتأخذ في التجمع من غير أن تدرك له سبباً . » ويروي لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول أنه استثار مرة قروداً فصرخ ، فإذا جماعة القردة تخف إليه وتتجه نحو « هولز » لتثار وتنتقم ..

يقول هولز : « .. حتى أن القردة الوديدة « ديانا » هجمت على بتوحش ، مع أني كنت قبل ذلك بفترة قصيرة ألاعبها وأقدم لها الهدايا » .. ١١

إن كارثة ماحقة أصابت أمتنا فلم تعد تجد من الإباء والوطنية والمشاركة مثل ما عنده القردة الصغيرة ديانا .. ١٢

(١) كتاب علم النفس — ج ١ — للأستاذ الأبراشي وزميلي .

لقد استجابت «ديانا» لواجبها فهو جماعتها فذهبت تعض اليد التي كانت تطعمها وتناغيها . . لأنها اعتدت على زميلة لها أوزميل . وفي بلادنا قوم لا يطعمهم الاستعمار ، بل يذلهم ويمتهنهم ومع ذلك لا يقفون مع الجماعة ضده . بل العكس ، ويتركون القردة «ديانا» تحقق وحدها المثل العليا . وجلال الأعمال . . .

إن الاستبداد والاستغلال هما «الجامبيا» التي تمتص من هذه النزعة النبيلة طاقتها .

أفلا ترون . . ؟ هذا الاستعمار الذي يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا . ويأطعنا كل يوم لطمة عاتية ، والذي يتصرف في بلادنا دون اعتراف حق بمجرد وجودنا فيتنفق مع أمريكا على القواعد الحربية في بلادنا . والذي يحتم على كاهلنا ، ويشير الفنان بيتا لتظل له الكبرياء والنفوذ في الأرض .

وآلا ترون . . ؟ هذا الفساد السياسي الذي جعل مصر أشبه ماتكون بصحيفة تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربية ثم تملأ صفحاتها بحروف تركية . . .

أعني أن سلطاتنا التنفيذية ذات طابع مصري ، ولكن سلوكها كله . وأنظمتها كلها ، وتقاليدها جميعاً لا تزال بقية عما ترك المستعمرون . هذا الاستعمار وهذا الفساد . أين الشعب منهما ؟ إنه يهيمهم . ويغفمهم ثم لا يزيد . بل حتى هممته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينها تناغم وتشارك وانسجام . . لماذا ؟ لأن نزعة المشاركة الوجدانية فيه لا تؤدي وظيفتها ، ولا تستثمر طاقتها طبقاً لخطة موضوعة توأصى بها الاستعمار والاستبداد . فصار عاجزاً عن أن يصنع صنيع الشامبانزي حين يضام منها قرد صغير .

هذه إذن هي المطارق التي تنهوى فوق محاولتنا ، وتنهال على إمكانياتنا .

- (ا) الاستعمار التركي الذي ذهب حكمه وبقيت أحكامه .
 (ب) الاستعمار الإنجليزي بنفوذ السياسى ، واحتلاله العسكرى .
 (ج) البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته ، لاوعيه ومشيتته .
 (د) الغرائز الناقمة التى أضناها طول الاضطهاد ، فمضت تعمل ضد المجتمع
 لأمعه .

والخلاص من هذه الأوزار لايتأتى بوسائل مناقضة للقانون بل الطريق
 إليه سوية ممهدة تعتمد على النظام والحب والثابرة ، وكلها خليفة من الحكومة
 والشعب بالتقدير والاحترام . وسندع الآن الاستعمار البريطانى حتى نلتقى به فى
 الفصل الأخير من الكتاب . وسنشهد فى فصل جديد ، هو الفصل القادم ،
 أسباب النجاة من الماضى الذى يطاردنا ، ومن البرجوازية النيابية المستغلة التى
 نعتاق نمونا ، ومن الحصار المضروب حول غرائزنا وقوى الحياة فىنا ،
 فإلى هناك . . .

الحرية : . هي التخلص

« إن الله الذي وهبنا الحياة . . .
« وهبنا معها الحرية في نفس اللحظة
ولنفس السبب » .

جيفرسون

قصة الحرية

كان من القدور للأُنسائية أن تظل شيئاً غير مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضاء للكلمة الساحرة الأسيرة - الحرية . . . فلما وجدت دفئها خاضت من أجلها معركة الدهر - ولا تزال تخوضها . يد أن لنشوء هذه المعركة قصة جديرة بالتدبر والامعان . أنها لم تبدأ كما نحسب يوم الباستيل . بل يوم بدأ الإنسان القديم يحس ، ويسمع . ويرى . يوم بدا له ، وهو يتسلق الأشجار فراراً من السيول ، ويأرّز إلى الكهوف حذراً من الصواعق ، والوحوش . أن الطبيعة تتحدى حرّيته . وتناوى طموحه . ومضى يتلفت عن أيمانه وشمائله . فلم يجد له نصيراً سواه . . . وانساب في روعه رجح صوت بعيد مقبل من الأزل .

لقد وهبناك الوجود ، ولن نمنحك بعده شيئاً ؛ فناضل لتجيا . . أو استسلم فتموت . ا ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه في إصرار وعزم .

ترى أى هدف آثر واختار . ؟ هو هذا -

* تأمين وجوده .

* واستثمار هذا الوجود .

أترانا بعد ملايين السنين نعرف ؟ أونتشد خيراً من هذا الهدف المزدوج الجليل ؟

ولكن ضد من - ذهب الإنسان القديم يؤمن وجوده . ؟

ليس ثمة سفاكون يحذرهم ؛ ولا إقطاعيون يتهيبهم . .

نعم ، ولكنه ألغى نفسه وجهاً لوجه مع الوحوش للفتحة تعيث في الأرض

باحثة عن ذلك النزول الجديد تملأ بأشلائه أمعاها . . ومن هنا بدأت قصة
البغى والمقاومة .

وهناك أملت الوحوش الباغية على الإنسانية الناشئة شروطها دون أن تترك
لها حق الاختيار . فأما أن تختفي في الجحور والمغارات فتسلم ؛ وأما أن تسير على
ظهر الأرض ، وتمشى في مناكبها فيفتربها كل ظفر وناب .

«تماماً كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم . فأما أن يتلفعوا بالصمت والتسليم
فيسلموا . . وأما أن يحترموا آدميتهم ؛ وينشدوا لأنفسهم حقوق الأدميين ،
فتدوسهم القوة ، ويهصرهم النكال . .

ماذا صنع الإنسان ؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه . . هل قبع في ظلامها .
أم خاطر من أجل حريته ؟ لقد خرج بحوله للتواضع ؛ وقوته الناشئة . . وصاح
بالوحوش الوقحة صيحة التحدى . وكان ذلك الاقدام ثمرة أدراكه لقيمة الحرية .
لقد رآها ضرورة لبقائه ، وآثر أن يموت في الأفق المتراحب موة جريئة بأسلة .
على أن ينفق في جحوره تنقواً بطيئاً .

«تماماً — كما يحدث اليوم في الشعوب المقهورة حين تدب فيها شجاعة اليأس
فتغامر بحياتها مغامرة تفضي بها إلى الحياة . .

وكانت خطه الجماعة الإنسانية الناشئة أن تتقدمها طليعة فدائية — ليس مهمتها
أن تنتصر بل أن تموت . . ولكن بعد أن تكون قد فتحت الطريق أمام
الملك الزاحف الواجف . . وقد كان . وفي كل رحلة من رحلاتها للتساوقة
كانت لها طليعة تلتحم مع الذئاب والوحوش التحاماً مرا ، ثم يسقط أفرادها
صرعى لتكون جثثهم جسراً تعبر عليه الجماعة إلى هدف جديد .

وذاث يوم ، والطليعة راكضة دمدت السماء برعدها ورجومها فازدادت

الطليعة ركضا واقتحاما . . ونهدت الرعد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الأرض التي وقفت عليها حتى تسلمها للزاحفين على أعقابها .

* تماما . . كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة . . إذ يعضون أمامها ويرسمون لها الطريق بأفكارهم ، وأقلامهم فيصرعهم البغي — ولكن دماءهم للراقة تبقى وهجا يرسل على طول الطريق ضوءه وسناه . . وذاق الإنسان طعم الحرية ؛ وأحسها إحساسا مثيرا فجر فيه البهيرة والخيال وكان من أعضاء الجماعة الإنسانية الأولى من انطبعت فيهم سلائق الوحوش من طول معاشرتها وكابدوها . . فما أن استقرت الجماعة في مدنها وقراها حتى كانت هذه الطبائع تتحفز للظهور والسوق بعد أن أنهت فترة الاختبار . . وكانت الوحوش قد غلبت على أمرها ، ودالت دولتها . . فانطلقت هذه القلة المحاكية تمثل في جماعتها — دور البأس الوحشي للنقرض ، وتقمصت الحيوانية المفترسة أجسادهم كي تعمل عن طريقها ؛ فشنوا على أخوانهم الأغارات ، واختطفوا الناس واتخذوهم رقيقا . . ثم احتوشوا الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع ثم شادوا الامبراطوريات ؛ وجعلوا أنفسهم أباطرة وفراعين . .

هذا تصور ؛ أو تخيل لنشوء الصراع بين الاستبداد والحرية وتطوره لم يكن لنا عنه غنى . ليعلم أولئك الذين يسومون الشعوب المقهورة اليوم سوء العذاب أنهم ليسوا سوى امتداد سليلي لوحوش الغاب وهم غرباء عن الإنسانية دخلاء عليها ووظيفتهم في هذه الدنيا — تعويق التقدم الذي يعتمد على الحرية وانطلاق الكرامة الإنسانية من وطأة المهانة ، وفرض قيود التبعية والخضوع عن البشر . ولقد سارت الحركة مع الوحوش الأدميين كما كانت تسير من قبل مع وحوش الغاب . وكان كل ظفر بتحقيقه الجماعة حافزا إلى جهاد أشد وأعظم ولكننا كتب عليها أن

تودع الراحة إلى الأبد ، وألا تضع العصا عن عاتقها حتى تقضي لنفسها أمرا . .
 ترى ماذا كان حظ آبائنا الأقدمين في هذا النضال ؟ لقد كان عجبا . ولكن
 ليس من طبيعتنا ولا من صالحنا أن نتباهى بعمل أهل القبور وحسبنا فقط أن
 نذكر ، أن بعض مؤرخي التطور الإنساني يقررون أن أول حركة قامت في
 الدنيا ضد الاستبداد السياسي ، والظلم الاجتماعي كانت في مصر أيام الفراعين .
 وعن مصر أخذ العالم القديم الدرس فحذقه وأبى أن ينساه . .

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك صلاة يتلوها في المعابد .
 — أيتها الآلهة

« أن فرعون يذلنا . . ويضربنا .
 » والأرض التي يقول أنكم وهبتموها له ترهقنا . .
 » أيها الآلهة . . أعطونا راحة . . وأعطونا أرضنا . .
 » إن ظهورنا قد انحنت . . فأقيموها !

ولسكأنما سرت هذه التريمة في وجدان الإنسانية بصورة لا تزال مستسرة
 خافية ولكنها متطورة نامية . فلقد وجدنا بعض الشعوب المنتفضة تصلى أبان
 انتفاضها فتقول .

« قفوا — ياعبيد الأرض . . قفوا — ياعبيد الجوع . . سيروا مع البركان . .
 البركان الذي سيأتي على القديم ، ويمحو الماضي جميعه .
 سيروا على الشوك . . سيروا على الجليد . . وقوقا وقوقا أيها العبيد . .

أن عدولنا أراد الدمارا ولأرض نعزها إقفاراً
 فسندقاه بالجواب الأشد القوى الصدى كقاصف رعد

كسنا البرق نخطف الأبصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته . . فبعد أن كان لا يحقق أغراضه إلا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول والاقناع والأناة . . وأصبح يعزف عن الدم - ويبحث عن الزهور ويتقزز من الموت ويريد السلام وإذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الأمم المغلوبة تريد الحرية وتسعى إليها . فلنتح لها بلوغ ذلك في سلام .

هل الحرية ضرورة ؟

ولكى ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعاً حاكين ومحكومين ، نحقق عن طريقه أغراضنا المتمثلة في الحرية والعدل فالخطوة الأولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحيثيتها .

أتريدون أن تصوروا قيمة الحرية . . ؟

تصوروا إذن قيمة الإنسان . وليس يكفي أن تتصوره تصورا دينيا بمعنى أنه خليفة الله في الأرض ، ومنفذ مشيئته فيها . بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر يبرزه في الدور الذي أداه ولا يزال يؤديه في عمارة النكون ؛ وخلق جميع صنوف الحضارة المتبدية فيه . هذا الإنسان الذي تعلم وعلم ، وبني وشاد ، واخترع وأبدع ، وفكر وتفلسف وانتقل بنفسه وبالدنيا معه . من بدائية فجة غريبة إلى رقي عارم ومدنية شاحخة . هذا الإنسان ما كان ليصنع من كل ذلك شيئا - لولا الحرية . ويوم كان يجد حريته - كانت تجده الحياة . ناصبا فيها حاثا لها . . فإذا فقد الحرية ؛ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده ولا تراه ولقد آتى على الفكر الإنساني حين من الدهر وضع فيه تحت وصاية غيبة ؛ ورقابة عمياء . فلم يكن ثمة أدب ولا فن ولا اختراع . ومثل واحد من مئات الثلاث يؤكد هذه الحقيقة ويذكرها . . فحين اخترع المجهر . « ميكروسكوب »

وقف خصوم الفكر والحرية من رجال اللاهوت المسيحي وقالوا : هذا ككفر
وهرطقة ، وسلطوا عدسته على جثمان برغوث .. فأروه ضخم الجثة — ففزعوا
ولعنوا الشيطان الرجيم .. ثم حرموا استعمال المجهر لأنه يغير خلق ، ويضعف
أحجام الأشياء . . .

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضطهد حرته ، أكان مآراء اليوم
من حضارة غامرة سيكون ؟

ويوم وقف « ابن رشد » يعلن نظرياته ، ويضع الحقيقة الفلسفية إزاء
الحقيقة الدينية وقف خصوم الحرية والفكر من رجال الدين الإسلامي وأغروا
به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين ، ودعوا لمكافحته كما تكافح الجراثيم والآثام
فلو بقي هذا الضباب جاثماً يسد الأفق ؟ ويحول بين الناس والحرية أكان طريق
المعرفة سيحجبه أمامها لاحقاً ممهداً تعمه مواكب المعرفة ؟

ما أروع الآية التي قالها جيفرسون :

« إن الله الذي وهبنا الحياة — وهبنا الحرية معها في نفس اللحظة ؛ ولنفس
السبب » في نفس اللحظة — لأن الحرية روح الحياة : ولا يتأتى أن يكون لها
بدونها وجود . ولنفس السبب — لأن غاية الحياة أن تنطلق بحقيقة الغرض من
وجودها ، ومنفذة مشيئة الله الكامنة فيها .

والحرية كذلك . . بل هي الأداة المفردة لكل ذلك — وما من تطور مشكور
نافع أخذ بيد الأوضاع القديمة للناس في السياسة والعلم والاجتماع إلا كانت الحرية
وحدها رائده وحاضيه .

الطمأنينة . . أم الحرية . . ؟

ولكن الحرية مطلب جليل وهي لا تمنح يدها كل لاس - والأيدى الناعمة
الرخوة حين تمتد إليها لتناولها ؛ ترتد قابضة على زراية وهوان . . ولا يبلغها
سوى الصناديد البواسل ، القادرين على التوكل والتسور والطموح وقديما قال
شاعر عربي :

لا بد للعاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام
فلنسأل أنفسنا قبل المسير . أريد الحرية بحق ؟ أم أنها لن تأتي وحدها . بل
تحف بها حشود من المخاوف والأخطار .
أن مهرها غال لمن يطلبها . . أنه الكد والتعب والمثابة وصماعة الأفق
والإخلاص .

وهناك في الواجهة المقابلة للحرية - توجد الطمأنينة . . طمأنينة أجماد
وسكنة القبور . وبهذا النوع من الطمأنينة نستطيع أن نعيش هادئين .
لأننا لا نشكو ، لأننا لا نشعر . لأننا لا نطمح ، لأننا لا نخاف ، لأننا لا نريد .

أفنتار الحرية ، ومعها أتعالمها . .
أم نختار الطمأنينة ؛ ومعها أغلالمها . . ؟
لعل من الخير أن نستهدى بأولئك الذين اجتازوا نفس التجربة من
قبلنا . .

فلنصنع لرائد كريم هـ « فرنكلين » يقول :
« إن الذي يفرط في مبادئ الحرية وجوهرها ليشتري بها قدراً تافهاً مني

الطمأنينة المؤقتة لا يستحق الحرية ، ولا الطمأنينة « . . وهذا حق وهو ليس فقط غير مستحق للحرية والطمأنينة بل لن ينالهما أبداً ولن ينال إحداها - لأن الطمأنينة المندمجة على ذلك الهوان لا تكون جديرة باحترامها ولا تفيؤها . .

وإذا كان شعبنا اليوم قد فقد الحرية ؛ فلأنه باعها بالطمأنينة ثم اكتشف آخر أمره أنه فقد الاثنين معاً - الحرية والطمأنينة .

ألسنا أحراراً . . ؟

ولكن كيف نزعّم أننا فقدنا الحرية . ؟

هل هذا واقع ، أو هو ادعاء وتطير . . ؟

وإذن فعن أى شيء تعبر هذه الحضارة ؛ وهذا الدستور وهذا البرلمان وهذه الصحافة . . ؟

أليست جميعاً مظاهر صدق لما في بلادنا من حرية وسيادة . ؟

وقبل أن أجيب - نعم ؛ أولاً - دعوني أقصص عليكم قصة :

يوم كان « وشنطن » يقود موجاً كالجبال من جماهير المقاتلين في حرب الاستقلال ؛ برز له جندي وصاح في انفعالات صاخبة :

— في سبيل ماذا تقاتل ؟

فأجابه وشنطن : في سبيل الحرية .

وعاد الجندي يسأل : وما الحرية التي تستحق كل هذا العناء ؟ فأجابه : هي أن تقف هكذا ، مرفوع الرأس ، بارز الصدر ، وتصيح ملء فمك - أنا الولايات . . والولايات بلادى . .

وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندي كالمارد ، وضرب الأرض
بقدمه ، ورفع رأسه وصاح : - أنا الولايات .. والولايات بلادى ..

ثم استدار إلى « وشنطن » وقال له :

— ها أنذا قتلها .. فقيم ، مرة أخرى ، هذا العناء وهذه الدماء .. ؟ !

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليزية الباغية تدك حصون المحاربين
وتصليهم سعيرا .. ودمدمت أصدااء طلقاتها العاوية على سمع الجندي المشدود فقال
له وشنطن :

— أسمع هذه الدممة .. ؟

إن المدافع الانجليزية تناديك : — كذبت .. كذبت .. كذبت

لست الولايات .. وليست الولايات بلادك .. !

ويوم تقول كلمتك ، ثم لا تتحدثك تلك المدافع ، ولا تكذبك هذه الطلقات ،
فأنت يومئذ حر ، وهذه هي الحرية .. !

والآن — هل أنت مصر — وهل مصر بلادك .. ؟ هل تمثل وطنك فيك
كيانا حيا بكل ما فيه من خير ، وبر ، وفرص .. وإمكانيات .. ؟ وهل لك من
الأمر فيه شيء .. ؟ أم أن الأمر كله للنهاب الظافر ، والمستعمر الدخيل .. ؟
هل أنت مواطن — تمشي على أرضها سيداً عزيزاً .. ؟ أم أنت تابع يأخذ
بخطامك استبداد مطلق واستغلال دنيء .. ؟ هل تستطيع أن تقول : لا ..
إذا نيظت بها كرامتك .. ؟ وأن تقول : نعم .. إذا نيظت بها مروءتك .. ؟
هل تقدر أن تقوم في بلدك اعوجاجا ، أو تنهه بغيا أو تمس القديم العفن بتغيير
وتحوير .. ؟ إذا كنته فأنت حر ، وإذا لم تكنه فأنت شيء آخر .. أنت
رعوية تافهة ، وعبودية مسخرة .. !

إن بداية خلاصنا أن نعرف ، لا أن نخدع . . وأسباب المعرفة عندنا كثيرة،
وعناصرها محشودة - تفتح أعيننا على حقيقة صارخة تؤكد أننا رعايا في «عزبة»
لا مواطنون في دولة .

وحسبنا لذلك — مأساة الشيوخ . .

وهي مأساة لا تحمل وزرها الوزارة ، بل السياسة ، ولا الحكومة ، بل
روح الحكم عندنا توجهها الرغبة في السيطرة ، وفي الانتقام والعبث ، روح
الحكم ، ونعني بها السلائق التي تجعل من السلطة التنفيذية سلطة إرهابية تعز
وتذل ، هذا الروح المماجن بما له من تقاليد وضراوة هو الذي لطم الكرامة
القومية لطمة لم يكن منها بد ، ليعلم الذين لا يعلمون أننا سوائهم ، لا مواطنون !
هذه حقيقة يعرفها الناس ، ولم يك ينقصها لكي تبلغ أوج اليقين سوى أن
يصدر بها مرسوم . وتنشر في الوقائع المصرية ! وقد لا يعنينا أن يظل الشيوخ
«المشاوحن» أعضاء أو أن يخرجوا . ولكن الشيء الذي أرجف على سكينتنا
هو أن يجيء هذا الإجراء عقاباً لهم ، وتكديلاً بهم من أجل استجواب تساءلوا
فيه : عن أموال الشعب ، كيف انتهت ؟ وأرواح بريئة كيف أزهقت ، وبيعت
حياتها اليانعة للشيطان ! . وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور ما يجعلنا نرتد
عاجزين عن الاقتناع بأن لنا في بلادنا حقوقاً ترضى ، وحرماناً تصان .

ولكنه لا بأس ، فلا بد من صنعا ، وإن طال السر ، وسنلاق الحرية وتلاقينا
في مهرجان يضج بأجراس الفوز ، ويفعمهم بزهور الانتصار .
ولسكن علينا بأنفسنا ، إن معركة التحرير تبدأ منها وفيها .

تحرير أنفسنا من أنفسنا !

قلنا إنه لا جزع على حريتنا في مستقبلها ، فهي آتية لا ريب فيها ، ولا خوف
عليها من أعدائها ، بل الخوف عليها منا أنفسنا .

ماذا يخاصم الحرية ، ويعترض سبيلها ؟

إنه الاستبداد وهذا الاستبداد نفسه أقرب الطرق الموصلة إلى الحرية والاستقلال

فكر قليلا ، تجد الأمر كذلك ، فنحن كلما استبد بنا الجوع ، ألحنا في طلب الطعام ، وكلما لفحتنا سبرات البرد ألحنا في طلب الدثار وهكذا كلما لفحتنا هجير الظلم والاستبداد ، اندفعنا في نزاحم إلى ظلال الحرية وروضاتها اللواتق إن الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع الظالم . وعندما تشتد وطأته تبدأ نهايته ، لأن الذين كانوا يسمحون له بالبقاء وتتقامأ أمامه محاولاتهم يضيئون به ذرعا وتواتهم شجاعة اليأس فيخاطرون من أجل الحرية مخاطرة تحطم عنهم الأغلال .

لقد وقف « أتاتوك » يوما خطيبا فقال : ليس على وجه الأرض شيء اسمه الظلم فهذا الذي وقع عليه مانسميه « ظلما » إما أن يرفضه ، أو يتقبله ؛ فإن رفضه فقد منع وجوده . . وإن قبله وخضع له ، صار لما وقع عليه مستحقا وأهلا . . فلا يكون مظلوما . .

وهذا كلام جليل صادق . وإذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه فلن نعجز عن تصديق « فولتير » وهو يقول : مارأيت كالطغيان شيئا يسوق الناس إلى الحرية لأبأس على حريتنا إذن من جلادها ولكن الخوف عليها منا وحدنا . وقبل أن نطلب إلى الآخرين احترام حريتنا ، يجب أن نبدأ نحن فنحترمها : هل يحترم المجتمع حريته : ؟ ما أثقل عبء الإجابة علينا ونحن نقول : لا . .

فالحقيقة أننا نحن الشعب لم نبلغ بعد الدرجة التي تؤمن فيها بالحرية فيها أضعف الإيمان : ولكن لن ندع الحاكمين يتوسلون بهذا إلى منع الحرية عن الشعب ، فهو إذا كان لم يقدرها ، فلأجل أن حاكميه وقاهريه لم يتيحوا له فرصة تذوقها ومعرفة قيمتها

ولزومها — ويوم يذوق سيعرف — ويوم يعرف سيفتيديها بمثل ما افتداها به السابقون . وكتابنا هذا محاولة لإيجاد تفاهم بين الحرية والشعب : وبينها وبين الدين أسرفوا على الناس وعلى أنفسهم بالبغي والاستبداد : ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية أن نقول إنها إذا لم تكن كبتاً وقهراً ، فهي أيضاً ليست استهتاراً وفوضى : ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على أريكة بإحدى الحدائق العامة ، وعن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهما معرفة ولا إلاف .. وثواب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصكت أطراف أنامله ذؤابة أنف جاره فغضب ونبه المتمطى إلى اللياقة المطلوبة ، فأجابه الآخر : أنا حر . !

فقال له صاحبه . نعم أنت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى حيث تبدأ حرية أنفى !

وذهبت مثلاً بليغاً فخواه أن حريتك تنتهى حيث تبدأ حريق ، وحريق تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين — والآن — لنذكر هذا جيداً . إن الموازنة في تمرس الحرية بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض ، وبين المجتمع والدولة هي خير ما يحقق لنا منافعتها جميعاً .

فواجب الجماهير إذن حيال الحرية .

— أن تؤمن بقيمتها وضرورتها ، وأن توائم بين الحقوق المشتركة فيها

والطريق إلى الأول — أن تفهم أنه لاخطر من الحرية على الدين ، ولاعلى الفضيلة ، ولاعلى مصالحها : وأن الخطر على هذه جميعاً إنما يهب من ربح الكبت وضيق الأفق ، ونضوب التسامح .

والطريق إلى الثانى — أن يمارس كل فرد حريته فعلاً ، وفوراً ، ودائماً — وسوف نخطئ ويغنى بعضنا على بعض ولكننا أخيراً سنتعلم من الخطأ ،

وتفيد التجربة وتصحوفينا فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لا تضل ، ولا تتجانب
مدوان .

وواجب الحكومة تجاه الحرية أن تكون في خدمتها ، وأن تصوغ قوانينها ،
وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .

والآن — لنمض معا — مستعرضين الحرية في أزيائها المتعددة — مبتدئين
بما بدأ الله به .

لقد تكلمنا في الفصل الأول عن « الغرائز » — هذه التي خلقها الله لتكون
طاقه دافعة ، فاستحالت بفضل الظلم والجهل إلى أغلال معقدة ، وعوائق مانعة .
والغرائز هي القوى التي نظم الله حولها الحياة الإنسانية بسكافة صروب نشاطها ،
بل ناط بهاء وجهة الإنسانية نفسها .

وإطلاق سراح الحرية رهن بأطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلصنا
يبدأ منها ، وسنجد الآن وراء كل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة
كذلك ، والربط بين الحرية والغريزة ليس من صنعنا — بل من صنع الله —
وهو قين أن يوفر علينا كل محاولة سفية لقمع الحريات . لأنها على هذا النحو
ليست شيئاً يقضى عليه البطش . بل هي وثيقة الصلات بأعرق وأعماق ما في الإنسانية
من عزم وإصرار ..

وأذن — دعوها فانها مأمورة . ؟

حين نواجه حقيقتنا للنعكسة على مرآة الحوادث الماثلة — نجد شعباً مخفقاً
يدور حول وهم وعجز — حتى إذا أدركه التعب خر على الأرض ليطويه سبات
عميق . وأعجب ما في أمتنا وجاهيرنا أنها على بينة مما تريد أن تفعل . ومع هذا
فقد عميت عليها السبل ، ومضت تضرب في كفاحها ودنياها على غير هدى .

ترى — ماذا يضلها ، ويخاد بها إلى الأرض ، والحيرة والاستسلام ؟

أهو فقط ظلم الظالمين . ؟

إذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بها فرص يرخى فيها المستبدون الزمام ، وتكتفى بأن تتعامل تملأ غامضاً ، لا ينطلق بها إلى هدف واضح وتخرج أنفاسها الكظيمة المضغوطة فيسمع لها خوار ، ثم فجأة تهجع ، وتأرز إلى الوتد صابرة وربما شاكرة . ؟

.. إن آفة الشعب في دخيلته ، في نفسه الباطنة ، وكل جهد يبذل للإصلاح بعيداً عن نفسه ، فهو جهد باطل مضيع ، إن في أعماق ضميره شيئاً يدعو لمقاومة الحياة ، وفي أقصى نفسه مرارة وياس ، وفي وجدانه شعور الريية بذاته ، وإمكانياته ، ومستقبله .. وفي عقله الباطن جبن ، وهوس . وانقسام . ، وشخصيته كلها ليست أكثر من إطار يضم هذه المساويء جميعاً — ومرد ذلك لا جرم ، إطفاء نور الحياة قينا وتحطيم إرادتها بمصادرة منابعها وردمها . فلنطلق غرائزنا هذه ، وهي مستهدى نفسها ، وتهدينا معها إلى الحرية والسيادة .

إن الحرية أجمل وأكبر من أن يضمنها قانون أو دستور أو حكومة . وإذا لم تستقر جذورها في قلوب المواطنين فلن يكون لها أغصان ولا ظلال .
لنبداً من هنا .. من غرائزنا المصفدة للمضطهدة الحاكمة تقض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها ، ولن نتحدث عنها جميعاً . كما رأيت قبلاً — وإنما نسوق الحديث عن بعضها الذي له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة أدق الوشائج .

غريزة الغضب — حرية النقد :

بيننا في الفصل الأول أثر اضطهاد هذه الغريزة في انطوائها على حقد، واندمالها

على ترس . والحكومات حين تحاربها - فسلحتها القانون ، فقانون يحرم التظاهر وآخر يحرم الاضطراب ، وثالث يحرم النقد والكلام .

والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها كذلك سهلاً وميسوراً ، وليست المشكلة في وضعها ، وإنما في جدواها ، إن القانون هنا — يحارب الطبيعة ، يحارب الغريزة ، يحارب قانوناً آخر ، وضعه الخلاق العظيم ووكدته القرون ، وهو لذلك مغلوب على أمره ولو بعد حين .. وغريزة الغضب تتسرب طاقتها تسرباً مهندياً مأموناً في المجتمعات والأمم بتمكينها من حرية النقد — فكبت هذه الحرية في شعب تحد لقوة أصيلة فيه أصالة الإنسانية نفسها ، وتصفية لطاقة تلعب دوراً هاماً في بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هاري أمرسون فوزدك » في كتابه (١) « كيف تكون رجلاً حقاً » كلمات هادئة مضيئة تكشف لنا عن قيمة الغضب الذي تكتم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف قيوده ، فلنستمع إليه .

« . . والنزوع إلى الخصام من أعمق الخوافز العاطفية في الطبيعة الإنسانية — والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الإنسانية وتقدمها ، وترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة في مواجهة المصاعب الشخصية وفي كل مظاهر الهجوم على المساويء الاجتماعية المستقرة .

« . . ولكننا إذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفي الذي لاغنى عنه — كانت النتيجة مدمرة ، فإن البغضاء الزمنة ، وإمساك الحقد في القلب يمزق صاحبه ، والغيظ الشديد قد يورث مرضاً كما تفعل الجرثومة .

« . . وإذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فإن شر ما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا — هو أن ندع الغيظ يستقر ، والكراهية تزمن .

« — حين لامت سيدة — إبراهيم لنكولن — على عبارة كريئة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

« كان الأولى بك أن تمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والأخلاقية ، ماذا تقولين ياسيدتي ؟ ألا ترين أني أقضى عليهم حين أجعلهم أصدقاء لي ؟ » ا. هـ

أفلا نستطيع حكومة وشعبا ، أن يكون بعضنا لبعض كأبراهام لنكولن مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المنتفضة باتخاذها صديقا .. ؟ أن السبيل لذلك متمثل في إطلاق حرية النقد فهي الانفعال السامى لغريزة الغضب .. وأن الجماهير في بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الأيتام في مأدبة اللثام — فهي تسرق ، وتضرب ، وتباع مصالحها ثم يحرم عليها أن تقول لظالمها ، وسارقها ، هذا حرام .. ا

وهل يمكن أن تحترم أمة أو تقدر ، وهي لا تأتمر بمعروف ، ولا تتناهى عن منكر . ؟ إن الدستور يعطى الأمة هذا الحق — والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق . ؟ والشعب والحكومة شريكان في اقتراف هذه الجريمة . فكلاهما يرفض أن تنقد شعائره ونظمه وتقاليده — وحين أتقد أنا ، أو أنت ، طغيان الاستبداد الذى يطأنا بقوائمه الغلاظ ، وغباء الحكومات وسفها وسوء استعمال سلطتها . تلف حول عنقك جبال الاتهام بقلب « نظام الحكم »^(١)

أفيكون كل نقد لساوئنا السياسية والاجتماعية قلبا لنظام الحكم .. ؟ ألا فلنتدبر هذه الحقيقة جيدا .

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت « قلبا لنظام الحكم » بل لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوي أفئدة البشر جميعها .

(١) كتبنا هذا وصفا لحالتنا قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وفي مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابي خيانة وقلبا لنظام الحكم ثم إذا هو اليوم مناظ الأمل والرجاء .

وكانت الحركة التي قادها الشيخ الشرفاوى ، والسيد عمر مكرم لتنصيب « محمد على » مؤسس الأسرة العلوية ، على مصر ، كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالي القائم ، وقلبا لنظام الحكم . لذلك نرى خورشيد باشا يخاطبهما عندما طالباه بالتنازل باسم الشعب قائلا :

« . . إني مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين . » واتهمهما بالخيانة واتهم الشعب كله — الفلاحين — بمحاولة قلب نظام الحكم . ولكن الفلاحين أصرروا على أن ينالوا شرف هذه الخيانة العظمى ، ووقعوا العريضة التي رفعت للباب العالي طالبين فيها تولية « محمد على » .

وهكذا نلاحظ أن كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التي يثمرها الوعي والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم .

أريد المرجفون بهذا الاتهام أن يفهمونا أنه لا يتم قط تحول نافع إلا على اكتاف الخيانة العظمى . ؟ أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الأرجاف ؟

لقد كانت ولاية محمد على ، في أوائها إثمًا ذا ليلاد من فساد كبير ونهض هذا الاعتقاد في قلوب زعماء الشعب وعقولهم فعملوا بوقته — ولكن الحكم القائم يومذاك فسر عملهم المجيد هذا بأنه جريمة وانتقاض .

أفتن حاولنا اليوم تهذيب حكمنا ، واستحداث النظم والقواعد التي تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا لذلك النقد الذي يستهدف البناء والإنشاء نجاته بنفس الاتهام التقليدي — الخيانة — وقلب نظام الحكم . ؟

إن الحكومة تسوء نفسها كثيرا وتسوء بلادها حين تزجرنا عن النقد

وتمنع عنا حقنا فيه ، وهى إذ تسكت أقلامنا ، وتخنق همسنا — تغرى بنفسها ويبلادها الناقدين الأجانب الذين يكتبون عنا ما لو مزج بماء المحيط لتركه آسناً عكراً .

وعندنا مثل لذلك — الكاتب الفرنسى « كوكتو » . لقد استضيف فى بلادنا — وكان من حسن حظ مصر أن يهبط « كوكتو » فى ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخم صمين ، فبسط للضيف موائد الكرام الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم ومشارب ، وهياً له الكثير الطيب من اللبالي الحمراء التى يجاهد فيها المترفون جهاداً مبروراً . ١

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر — أن يرجو مضيئه كي يمكنه من رؤية « الحلقة المفقودة » فى تاريخ الإنسان — تلك التى تتمثل فى هلايين الفلاحين والصعاليك المضرجين . وعلى هذه الشارات الأدمية ركز « كوكتو » عدسته طويلاً فوعى كل شيء ، وعرف كل شيء . ١

ولما عاد إلى بلاده فرنسا . أخرج كتابه المعروف « فى بلاد معلمش » ! ولم تر هذا الكتاب طبعا ، فقد صدرته حكومتنا الرشيدة صونا لسمعة مصر أمام أهل مصر . أما العالم كله فقد قرأه وتلاه . ومثل « كوكتو » آخرون وآخرون .

والعجيب أن حكوماتنا خارقة القدرة فى محاربة النقد ، فهى لا تفرسه داخل حدودها فحسب ، بل تتعقبه خارج الحدود أيضاً — ولكل بلد وسيلته اللاتمة به . فعندنا مثلاً يحارب النقد بالسجن والتشريد ، وعند غيرنا من البلاد الأخرى تتعقبه بالإغراء والرشوة ولعلنا لم ننس بعد نبأ ذلك الباشا المصرى الذى ذهب فى الصيف الماضى إلى جريدة إنجليزية كبرى ، وزار المحرر المختص بشئون الشرق الأوسط ، واثمس منه أن تسكت الصحيفة عن نقد الأوضاع الفاسدة فى مصر ، وفى نهاية حديثه قدم للمحرر « شيكا » بمائة ألف جنيه . ١

ونادى المحرر حاجيه وقال له : اصعب الباشا إلى الخارج ؟ فإنه يجهل الطريق . . . !

نعم — أنه يجهل الطريق . ولقد علمه الفساد المتفشى في بلاده أن كل الطرق توصل إلى روما ، وأن الدم تشتري بالمال في غير مصر من بلاد الله ، ففعل فعلته وهو من الضالين . !

وليت الحكومات هي التي تحارب وحدها حرية النقد ، بل أن المجتمع كذلك أيضا . !

حين تنقد من تقاليد الموروثة وجهالاته المزمنة ماتعتقد أنه ضارب عائق له ترتفع أصوات كثيرة حاملة إليك نفحة هائلة من اللعنات والتخنيات .

يجب أن نروض أنفسنا على تقبل النقد متأسين بالبطل العظيم عمر بن الخطاب الذي كان يقول : رحم الله من أهدى إلى عيوب نفسه . وأن الصخرة التي تلقى في طريق حرية النقد لترطم بها — هي التقاليد .

فتقاليدنا السياسية تصدنا عن تعديها ومحاولة إصلاحها ، وتقاليدنا الاقتصادية تزجرنا عن نفس الغاية ، وتقاليدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لإصلاح ديني ، وتقاليدنا الاجتماعية تريد أن تستعصى على التحوير والتطوير . . . !

والحقيقة التي تمزب عن بالنا هي أن الأديان جميعها لم تأت إلا لئلا يندم على التقاليد ، وتقتلها ثم تذروها مع الريح . ولو كان للتقاليد سلطان ما قامت للإسلام قائمة . فإنه لم يحارب شيء كما حارب بالتقاليد . لذلك ذهب القرآن الكريم يصفع أنصارها — أنصار القدم والبلى والتعفن ، ويسخر من الذين قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ! فلحساب من تستبد بحرياتنا اليوم طائفة عفنة من تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحساب الدين . . ٩ - إن الدين كما رأينا يرى في الركون إليها صفها . بل يراه جريمة ييؤء صاحبها بغضب الله وازدراؤه .

ففي حديث صحيح يقول الرسول عليه السلام .

« إني ممسك بحجزكم عن النار - هلم عن النار - هلم عن النار . ولكنكم تقامون فيها تقاحم الفراش أو الجنادب . فأوشك أن أُرسل بحجزكم - وأنا فرطكم على الخواض تردون على معا وأشتاتا فأعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل في إبله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، وأناهد فيكم رب العالمين ، فأقول أي رب . أمق . فيقول : يا محمد .

« إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك . إنهم كانوا يعيشون بعدك القهقري على أعقابهم . . ١ »

فهل الركون إلى التقاليد إلا تقهقر على الأعقاب . وتغلف معيب مهلك عن موكب التقدم والحياة . . ١٩

أم هو لحساب الدنيا إذا لم يكن لحساب الدين . . ؟ لكن الدنيا لا تقوم على الجمود بل على التغيير الثابر والتجدد المستمر - ولنضرب لذلك مثلاً .

فقد كانت البيوت الارستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد الحكام والوزراء والرؤساء . فإذا بأمواج السيادة الشعبية ترفع إلى القمة أناساً لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم : ولم تكن العين لتقع عليهم في ازدحام الحياة .

فابن الحباز « فنسيان أوربول » رأس جمهورية فرنسا . .

وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين في روسيا . .

وغاسل أطباق الصيدلية « ترومان » يصير الرجل الأول في أمريكا

وسائق القطار « ييفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا العظمى .
وهكذا في بقية جوانب الحياة لا قدم للتقاليد ولا قداسة ، ولكل ساعة
تقاليدها المستحدثة وأوضاعها الملائمة .

غريزة النفور - حرية المعارضة .. وحرية الإرادة

وإذا انتقلنا من حرية النقد إلى حرية المعارضة وحرية الإرادة وجدنا وراء
هذين اللونين من الحرية غريزة أخرى قوية ماضية هي - غريزة النفور .
وانفعالها المشروع النافع للمعارضة . والإرادة .

فأنت حين تنفر من شيء مقيت ينتابك إحساس مزيج بالإعراض عنه ، ثم
بإرادة تغييره أو تحديه .

ولكن الإعراض موقف سلبي إن صلح في المواقف الفردية لا يصلح فيما
يمس الأمة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة والتقويم . . ماذا كان يعنى
الرسول بحديثه الكريم : -

« أنه سيكون بعدى أمراء ، من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فليس
منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الخوض - ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم
يعنهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الخوض .

وماذا كان يعنى عمر حين دعا الناس أن يقوموه إذا اعوج ، ويرشدوه إذا
انحرف . . ؟

ليس لهذا كله سوى دلالة واحدة هي التقدير الواعى الكريم لغريزة النفور
إنها إذا طمست في أمة أو ضللت - صار أمر هذه الأمة فرطاً - لذلك رأينا

الاسلام يزكى حماسها ويشير انتباهها ، فيقول الرسول : « لا تمروا بديار الدين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم » . ١

ثم يقول : « إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعممكم الله بعذاب » .
إن عبارة « ولم تأخذوا على يديه » هي الانفعال المحتوم لغريزة النفور -
هي المعارضة والتقويم . .

وحرية المعارضة في بلادنا عملة زائفة يحظر تداولها ، وبينما نجد كلمة (المعارضة) في بلاد كإنجلترا عنوانا لهيئة سياسية تحترمها الحكومة وتنتفع بذكائها ، إذا بها في مصر عنوان على طائفة منبوذة مضطهدة - هكذا دائما - في كل حكم ، وعهد . !
ولقد قصصنا عليك من قبل ، كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، أم خادم - لأن تمثيلها اجترأوا على رفع الستار عن بعض الدنم التي شريت في كؤوس النصر والاستهتار دماء الأبرياء ودموع اليتامى
وئكل الأيام . . .

إن المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية ، وأى امتحان لها أو تفويض لسلطانها امتحان للنظام النيابي جميعه وتقويض له .

والأمر كما يقول « ج . بيوري » في كتابه - حرية الفكر :
« إن الشر الناجم عن تفهقر الحرية إلى وراء ، أعظم من أى شر وفق مهما
بلغ من الاستطارة والإيذاء . . »

إن حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان في الدول المتحضرة مظهراً يبعث على الدهشة والعجب . فترى الحكومة البلجيكية التي بذلت جهداً مضنياً لتعيد الملك « ليوبولد » إلى عرشه - تقف أمام معارضة المعارضين من الشعب منحنية مستسلمة حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كاللوج تصرخ في وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد باليوبولد . . ارجع إلى منفاك باليوبولد » . . ؟

بل أن أروع من ذلك قد كان ، فكتبت جريدة الأهرام يومذاك أن مدينة « لسيج » أعلنت الحداد من أجل عودة الملك - ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة ! !

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها « بول هنرى سباك » معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك - وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل « آخر لحظة » عن المسألة فيقول : « عندما يصبح الملك هدفاً لخط الشعب يصير على الفور غير صالح لأن يكون ملكاً ، ولقد شعر الملك ليوبولد بأنه لا يستطيع الجلوس على العرش إلا وهو فى حماية المدافع الرشاشة . . .

« ولا تستطيع أن تصور ملكاً يجلس على عرشه فى حماية الحراب . . . » — ثم يتحدث عن الملك الجديد قائلاً — « إن الأمير بودوان فى مركز لا يحسد عليه ، وهو يفتقر إلى المران والخبرة ، ونحن نطلب منه ثلاثة أشياء . . .

— أن يحترم مبادئ الدستور .

— وأن يعيد السلام والكرامة إلى شعبنا الجريح . .

— وأن يكون ملكاً سعيداً ، فإن الملوك السعداء يخلقون شعوباً سعيدة .

إننا نريد أن نظفر فى بلادنا بمثل هذه الجراءة فى معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسئولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الإرادة فى أن نصنع حياتنا كما نشاء نحن لا كما يشاء الآخرون . والذين لا يمكننا من حرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلّش » . لأن العجز حين يرين على إرادة المستضعفين ، وترعش ألسنتهم بكلمة الحق يعارضون بها البغى والفساد لا يمكن أن يكون سوى هذه الكلمة الرثة « معلّش » !

والحاكم الصالح النظيف الشجاع هو الذى تزدهر المعارضة برلمانية وشعبية فى عهده وترعرع . لأنه لا يخافها ولا يخشاه .

ولقد كان عمر من هذا الطراز حين قيل له ، اتق الله في الناس يا عمر — فقال : ويل لكم إن لم تقولوها — وويل لنا إذا لم نسمعها . . ؟ وكذلك كان « لنكولن » حين قال : « إذا أدركتم أبصاركم في الوطن ، فرأيتم لي فيه عملا جليلا ، فاذكروا الدين كانوا يخالفوني في الرأي ويعارضوني . لقد كانوا من ورأى سياطاً تلهي . ومن أمانى أضواء تنير لي الطريق » . . ا

المشاركة الوجدانية — حرية الفكر : وحرية الرأي . . .

إن نشاط « المشاركة الوجدانية » يترجم في حياة المجتمع بتضامن الشعب والحكومة في حمل التبعات وتلقيهما في الإحساس والشعور . .

والعواطف كما يقولون معدية ، ولا تقف عدواها أمام حجر أو حصار . فإذا شاعت في الأمة عواطف الثقة والمحبة استقام أرضها . وإذا حطمتها عواطف الشك والقت طاش سهمها . وخاب فألها . .

ولقد أدركت قوى الشر العاملة الناصبة ، هذه الحقيقة . فتوسلت إلى تمزيقنا بتشكيك المواطنين بعضهم في بعض وتشويه سمعة الرواد الخالصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا . لماذا صارت الأمة أشتاتا ومزقا ؟ تحسبها جميعاً . . بل لا تحسبها . . وقلوبها شق . . لأن نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحاطها طول الارغام إلى نزعة تشييت وتخذييل . . ولماذا كان ذلك كذلك ؟ — لأن المجتمع لم يحاول أن يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها — ولو قد فعل لغشيت الثقة ، وآخى بينه التسامح وسما به الفكر الطليق إلى سماوات من فوقها سماوات .

لا بد إذن — أن يقر في أذهاننا وضماثرنا الاحترام الأكيد لحرية التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، وتتخذ من الخلاف الفكري مزية ، ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا . ا

فلتفكر أنت كما تشاء — ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون أن نجعل من مناطق التفكير حلالاً وحراماً — فالفكر وحده هو الذي سيقدر في حرية كاملة حلماً أو حرماً . . إن للفكر الإنساني إمكانيات ثرة هائلة ، وهو أداة الإدارة الكبرى للكشف عما في كون المادة ، وكون المعرفة من ركاز وكنوز . والعالم الحديث زاخر بالمذاهب والأفكار . ونحن في هذا العالم جزء منه يصيبنا ما أصابه طوعاً أو كرهاً — فإذا لم نحط بعقليته وأفكاره خيراً . ونسارع إلى مسايرته أو مسابقتها . فسنظل مكاننا — لنا أعين لا نبصر بها ، ولنا آذان لا نسمع بها ، ولنا قلوب لا نفقه بها حتى يعمي بنا الموكب وهو ماض إلى غايته فيستردفنا خلفه كما يستردف اللقطاء . ويضعنا تحت الوصاية حتى يروضنا على تقبل الحياة والتفاعل معها . أليس هذا — هو منطق الاستعمار حين يعثر على أمة مغفلة لا تحترم ما أودعه الله فيها من عقل وقدرات . ؟

إن بلادنا محرومة من أن تفكر ؛ لأنها محرومة من أن تقرأ — ومحرومة من أن تعبر وتقول . . وهي ممنوعة من ذلك كله حرصاً على سلامة الدولة ؛ وسلامة الهيئة الاجتماعية . ١١

أصحیح هذا — أم خداع وهراء .
 إن الفكر الحر لا يكون خطراً على الدولة والمجتمع أبداً . وإنما مصدر الخطورة فكر غير حر ؛ فكر مكره مضطهد موقوف .
 إن حكوماتنا تهيب طبيعة بعض الأفكار وتأثيرها فتحرّمها . ومنفترض إخلاصها في هذا التحريم . ونظافة بواعثها . ثم ندعوها لتسمع من « ميل » في كتابه « الحرية » نقاشاً هادئاً بليغاً .

» . . هذه الفسكرة المراد تحريمها صواب أم خطأ .

« إن تلك صواباً ثم حظرتها . فقد حرّمنا المجتمع حقّه فيها . . وسلبنا منه إحدى حقائقه الكبرى . وإن كانت خطأ فمن أين لنا معرفة ذلك .

«يجب لكي نحكم عليها بالتصويب أو التخطئة أن نمتحنها في جميع الظروف وتتاح لنا الحرية الكاملة في مناقشتها ومناقضتها وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب إنسانية أن يتثبت تثبتاً عقلياً من صواب فكرة أو خطئها» .

إن هذا القول البليغ ليجهز على أراجيف الذين يحرمون المذاهب والأفكار حرصاً على دولة . أو مجتمع ، أو فضيلة ؛ فالفكرة التي تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصاراً مستمداً من صدقها وأحقيتها هي التي يجب أن تنظم تقاليد الدولة حولها ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها . لا أن تحظر وتصادر .

لكن . كيف لا تكون حرية الفكر والرأى خطراً على الدولة وهي المسؤولة عن كل ما وقع في التاريخ من تغير وتطور وانقلاب .

وجوابنا - أن هذه - مزية الحرية لا خطيئتها - فكل ما أحدثته من تغير وتطور تم لصالح الإنسانية وأفضى لإسعادها .

وأما ما حدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته ، فلم تم جميعها على وجه غير مشروع ، والذي وقع منها على وجه محظور - كان القانون في انتظاره يصادمه ، ويقف دون غايته - وهي مصادمة محترمة حتى من الحرية نفسها ما دامت بعيدة عن الإفراط والتفريط . يقول « ج يورى » (١) :

« إن الحالات التي يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليماً ، هي حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ، فلو حدث مثلاً تحريض مباشر على أعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع لتدخل الحكومة . ولكن الباعث على التحريض ينبغي أن يكون متعمداً ومباشراً .

(١) حرية الفكر - ترجمة الأستاذ محمد عبد العزيز أسعدى .

« فإذا ألفت كتاباً . وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت إلى نظرية فوضوية ، ثم قرأه رجل ققام وأعلن التمرد ، وارتكب جريمة . . فقد يستنتج من هذا أن كتابي هو الذي جعل الرجل فوضوياً وجانياً ومع ذلك فلا يكون جائزاً ، ولا مشروعاً أن أعاقب على التأليف ، أو يصادر كتابي مادام لا يحوى تحريضاً مباشراً على ارتكاب تلك الجريمة بالدات .

« إن الشر الناجم عن تقهقر الحرية إلى وراء أعظم من أى شر وقع مهما يبلغ من الاستطارة ، وأن مبدأ حرية الفكر إذا تقرر يوماً ما باعتباره أقصى مراتب التقدم الاجتماعى . . خرج من مجال الأمر العادى إلى مجال الأمر السامى الجليل الذى نسميه « عدلاً » أو بعبارة أخرى ، يصبح حقاً يستطيع كل إنسان ان يستند اليه — وأن قيام هذا الحق على مبدأ المنفعة لا يبرر أن تقوم حكومة فى أحوال استثنائية ، فتقص من أطرافه بحجة المنفعة نفسها . »

ويعنى « بيورى » بقيام الحرية على مبدأ المنفعة ، أنها لى تكون مجدية حاسمة بعيدة عن المهارة والتعارك والخلاف ينبغى أن تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الإنسان المطردة المتطورة .

وإذا عجزت هذه الكلمات الهادية أن تهدينا ، وتقف عدواننا المستمر على حرية الفكر ، فلن تعجز الواقع أبداً . وهذا الواقع يتمثل فى أن للأفكار والآراء فى هذا العصر ، من النفاذ ، والغلبة ، وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام ما لا يمكن قوة على ظهر الأرض من وقفها . فبدلاً من أن تنفذ إلى أفئدة الناس فى خلصة وظلام ؛ دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، وتنفضها فى نور ووعى لناخذ منها الطيب وننتفى عن مجتمعنا الحبيث .

وارتباط حرية الرأى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة للشأنية بدون

الأولى . ونحن لانطالب بحرية الفكر كما نطالب بحرية الرأي ، فأنت تستطيع أن تفكر تفكيراً ذهنياً في أخطر الأشياء ؛ وأشدّها خصومة ولددا للقانون دون أن يسمع أحد أو يرد ، ودون أن يقدر أحد — حتى أنت — على وقف التفكير ورجعه .

لذلك . فإن حرية الفكر تعني في الحقيقة حرية الرأي . حرية التعبير والقول . وقمين بنا أن نعلم أن هناك تلازماً طبيعياً بين التفكير . والتعبير . . حتى أن بعض علماء النفس ليقولون :

« الإنسان يكلم نفسه وهو يفكر . ولوراقبنا جباله الصوتية . ونظرنا إلى حنجرته أثناء التفكير . لرأيناها تتحرك . وهو دليل على أنه يتكلم ولو لم يشعر بذلك . . »

أرأيتم الآن ما بين الحريتين من تلازم وارتباط . ؟

ثم أرأيتم أن مكافئة الحرية مكافئة للطبيعة الغالبة . وتحد لإرادة الله . ولا يتمثل الرأي في شيء كما يتمثل — بعد الكتاب — في الصحافة . فهي التي يتشكل فيها إلى حد كبير أسلوب الأمة في التفكير وفي الحياة . . وهي التي تستطيع أن تعبر في إفاضة . وإحاطة . وقوة عن آلام الشعب وآماله . . ولما كنا سنتحدث عنها في الفصل القادم باعتبارها أهم العناصر التي تتألف منها شخصية الأمة فسنرجى الحديث عن حريتها ليأتي هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها .

أطلقوا سراح العقل

والحديث عن حرية الفكر والرأي لا يبلغ مداه حتى يحمل نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته .

أن العقل في بلادنا . وهو مناط التفكير والفهم . مشرد محروم .. تطارده
الحكومات . وتطارده أيضاً الجماعات . . .

فهو مشبوه سياسى تارة . ومشبوه دينى تارة أخرى .. ولا يكاد يبرز من
كوى سجنه بزغة خاطفة . أو يومض ومضة بارقة حتى يفرع منه « المحافظون »
وماذا . بعد أن تظل عقولنا مسامة هذا الاضطهاد ؟
ماذا . بعد أن نظل أمة بلا عقل . ؟

إن المستعمر الذى يستعمرنا . والمستبد الذى يحكمنا . والمستغل الذى
يستغلنا — كل هؤلاء إنما يستعينون علينا بعقولهم . فإذا شئنا أن نزل الأرض
تحت أقدام المستعمرين . ونرد الرجعية على أعقابها لتلتزم مكانها الذى أراد لها
التطور والتاريخ . وإذا قررنا الانطلاق مع الكوكب الحى . أحراراً كما ولدتنا
أمهاتنا — عاملين تتفجر بالأدب والفن والإنتاج مواهبنا .. إذا كنا نريد فلا
سبيل لشي حتى يعود الغائب . ويطلق سراح السجين .. العقل !

إن الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا في الظلمات .
والعجيب أنها تخوف بالله .. ترى أين يلتبس العقل سكينته وأمنه إذا
افتقدتها لدى الله ؟ — إن الشعوب التى لا تحترم العقل لن يحترمها أحد —
وستظل أبداً مباءة تعج بالسهة والحقائق ونهباً يربص بها كل مستعمر وناهب
ويجب أن نعلم أن العقل سيد نفسه . وإذا كان لله خلفاء في الأرض خلفاؤه
العقل . والذى يبخر عقله . وينزع منه اختصاصه . لا يظل إنساناً . إنه كومة
هزيلة من اللحم والعظم والأعضاء والأمعاء يطلق عليها تجوزاً لقب « آدمى »
وهؤلاء الذين يشيرون العواصف أمام العقل باسم الله جدمفترين ! .

لقد اختلف الأنبياء والمرسلون . فكان لكل واحد منهم طريقة ومنهاج

واختلف أصحاب محمد عليه السلام وهو ثابو بينهم ومقيم . واختلف أئمة
الفقه في أخص خصائص الدين ، واحترم بعضهم لبعض هذا الخلاف .
وما ذلك كله إلا احترام للعقل ، وحض له على المغامرة والتحقيق .
انظروا — تروا عمر بن الخطاب لا يخاف من إلغاء نصيب المؤلفة قلوبهم مع
أنه مضمون بآية صريحة في القرآن .

لماذا . ؟ لأن عمر استعمل عقله ، فاهتدى إلى أن هؤلاء المؤلفة قلوبهم لم
يعد ثمة ما يدعو للحرص عليهم ما لم يأتوا مؤمنين راغبين .

إن استعمال العقل واحترامه بداية ما تريد من بحث ونشور — ولا بأس
أن تخطيء عقولنا وتزيغ .. فستتبدى آخر الأمر ، والخطأ الذى يثمره تحرير
العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل .. وهذا هو الخطأ الذى يجعل الإسلام
لصاحبه أجراً ..

ولقد كان الرسول عظيماً يوم ضم إلى صدره معاذ بن جبل تقديراً لشجاعته
الأدبية والعقلية حين قال : اجتهد رأيي ، لا آلو . جواباً على سؤال النبي له :
ماذا تصنع إذا لم تجد الحكم في كتاب الله ، ولا في سنتي ؟

وكان « جون ستيوارت مل » بليغاً وهو يقول :

« إن الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ الأهبة
وإنعام النظر — أكثر مما يستفيد من صواب الذين لا يعتقدون الصواب من
باب التسليم دون أن يكفوا أنفسهم مشونة البحث ، ومشقة التروى . » .

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف . فليس شيء سواها بقادر على تحريرنا
وإنقاذنا . ولندكر أن أعداء مصر لا يرهبون شيئاً مثلاً يرهبون العقل
المستنير . لأنه الرائد الباسل أمام كل حركة شابة ، وتطور زاحف .

ومن أجل ذلك يعضونه ، ويحاربونه ، وعلىنا أن نحرره ليحررنا ، ونخلصه
ليخلصنا ، أنا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين أو القلم ،
يسهمون مع الغاصبين في محاربة العقل وتأليب الجماهير عليه . وتشكيكهم في قيمته
وفي نفعه ، وتجرثهم على بهته ورجمه — حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلاً
في آراء بريئة خالصة لأخوة لهم في الوطن ، والألم ، والكفاح .

إن هؤلاء لن يكونوا سوى فريقين :

أصدقاء جهلاء للشعب .

أو أعداء خبيثاء له . . .

فليختاروا لأنفسهم ما يحلوا .

أما نحن فنختار لهم ، أن يكونوا أصدقاء علماء .

ونأسف أيضاً لحكوماتنا (١) التي تجي منا الضرائب لتسخر بها عن طريق
المصروفات السرية والعلنية ، على أولئك الذين يحاربون العقل والوعي بما
يكتبونه ويذيعونه ، وحين تدع كتب الغشاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم تصدر
أو تهدد دائماً بالمصادرة كل كتاب يبشر بالواجب ويخافق بالواقع المثير .

وإذا كان الخوف عدواً خطراً للعقل ، فالتقليد أشد خطورة وكيداً ، وهو
ديديبان حارس لما للرجعية والتأخر من تراث .

والأهم المنحدرة النائمة لا تنيق حق تومض في حياتها ساعة تؤمن فيها بأن
التقليد انتحار ، ترى هل دقت هذه الساعة فينا . أو آن لها الأوان . ؟

إن الجواب — مع الأسف — لا .

(١) المعنى بهذا الحديث طبعاً حكومات ما قبل ثورة ١٩٥٢ .

فنحن أمة تتلقت دائماً من غيرها دون أن يكون لها إبداع وإشكار .
 وهذا كلام يضل فيه الفهم إذا لم يكن بصيرا ، فقد يظن البعض أن استهجاننا
 للتقليد يعنى كل محاكاة نافعة ، وكل قدوة بالدين سبقونا إلى الحياة . . كلا —
 والفارق بعيد بين التقليد والمسايرة . . ونحن ندحض التقليد ، ونؤمن بالمسايرة .
 ولكن ما علاقة التقليد بحديث يساق عن الحرية ؟
 إن العلاقة بينهما أكيدة وواضحة .

فالتقليد — عبودية ورق — وإهدار لكافة مقومات الحرية ، والشخصية
 والفرد حين يقلد فرداً آخر يمحو ذاتيته من الوجود .
 والدولة حين تقلد دولة تقليداً أعمى توقع منشور نعيها وخبر وفاتها وفي
 بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل نأتيه ونهجم نتجهجه .
 وفي غيرنا من البلاد المتحضرة عليت نزعة التقليد وهذبت وصارت تطورا
 ومسايرة .

يا للمشاهد المضحكة .

جماعات تقف أقصى اليمين ، وعلى أبصارها غشاوة . وجماعات أخرى في
 أقصى اليسار ، وعلى أعينها غطاء .
 أما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لا ثمن لهم ولا جزاء .
 والحكومات (١) عندنا — ألغت هي الأخرى عقلمها — ومضت تقلد في جنون
 وشغف — فهي تارة تقلد « عنزة » فتخطب وتصخب ، وتبطش بالضعفاء
 لترزجر بهم لأقوياء . وتمزق الهواء بالسيف وتهتف من « الشرف » بسقوط
 الشيوعية . . وتارة أخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى في الطريق
 قلنا مثل : لماذا يصنع هذا . . ؟

(١) الذي بهذا طبعا حكومات ما قبل ثورة ١٩٥٢

أجاب بأنه يريد أن يعرف إلى أي مدى يبلغ صوته الجهير . !
 حكوماتنا تحمل نفسها أوزار العروبة ، وسفهمها وفوضاها — لأنها تريد
 أن تعلم . إلى أي مدى يمكن أن يصل صيتها ، وإلى أي مدى تستطيع أن تسوس
 امبراطورية مترامية عندما يمن الله بها عليها . !

لقد كان جحا قادراً على معرفة منتهى صوته ومداه لو أنه وقف مكانه ونادى
 بالأذان ولكنه أراد ذلك ليُتيح للفاغين أن يقلدوه وينتفعوا بذلك . . . إننا
 في كارثة ونحن لا ندري .

فالتقليد لدينا محور حياتنا . وهو يذهب صاعداً — فتقليد الجماهير روادها
 من كتاب وصحفيين وبرلمانيين . .

وهؤلاء جميعاً يقلدون الروح المتخلفة والوصولية الزاحفة .

ثم يأخذ التقليد ترتيباً آخر تنازلياً ، فترى الشعب مثلاً يصبح : هيا إلى
 فلسطين — فيردد الكتاب والرواد صدهاء : هيا إلى فلسطين — وإذا الحكومة
 القائمة وقتئذ تصبح هي الأخرى — هيا إلى فلسطين . . دون أن تنهياً وتستعد
 وتقف على صخر مكين .

والجماهير — تنفس عن غيظها العاجز المكبوت ، فتتهف — تسقط الرأسمالية
 وتقلدها الحكومة . فتصرخ : تسقط الشيوعية . . !

إن عقليتنا السياسية تقلد وعقليتنا العلمانية تقلد ، وعقليتنا الأصلحية تقلد . .
 فقدت نفسها لأنها فقدت عقلها — فإذا أردنا أن نجد أنفسنا ونقرض على الآخرين
 وجودنا واحترامنا ، فلنقدر العقل قدره . . ولنمكنه من أن يفكر في حرية
 وانطلاق — لا يخاف وها ، ولا قانونا — ويساير النابيين مسaire مبصرة . ولا
 يقلدهم تقليد المكفوفين .

غريزة «أنا» — الحرية السياسية . .

عندما نتحدث عن الحرية هذا الحديث المتنوع ، فنقول حرية الفكر وحرية الرأي ، وحرية النقد — إلى آخر هذه التقسيمات ، فليس معنى هذا أن الحرية تتجزأ . .

إن الحرية وحدة متضامنة متداخلة لا تقبل التجزئة . ولا التفتيت ولكننا نكسوها هذه الأزياء للتنوعة . تبعاً لتنوع الظروف والمقتضيات . والحرية هي الحياة . والحياة لا تتجزأ فأما حياة كاملة وأما موت كامل . من أجل ذلك صاح محرر قديم — أعطنى الحرية ، أو الموت . . !!

ونريد الآن أن نتحدث عن الحرية السياسية للشعب — وهى الانفعال السامى لأعرق غرائزه ، وأنفعها ، وأغناها .

غريزة «أنا» حب الذات ، وإثباتها ، وتوكيدها — إن الشعوب المستعبدة تعجز دائماً عن أن تقول : أنا . . واسمعوا هذه الحقيقة جيداً .

إن الشعب المسترق لا يستطيع أن يقول : أنا . مشيراً إلى نفسه ولكنه يقول : هو . . مشيراً إلى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم^(١) فى لسانه — أن يقول دائماً : أنا . . أنا . . أنا .

إن توكيد الشخصية يتطلب مدداً زائداً من قوى الفرد ، وقوى الجماعة . . وإذا كانت التعاليم المغلوطة ، والأهانات المتكررة ، والاستعمار المتعطرس — إذا كانت هذه جميعاً قد نزلت عنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد أن نكون أهل ثقة واعتداد وكبرياء .

(١) المقصود هو الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى من الكتاب .

لقد قرأ نابليون في صغره — أن من أراد أن يكون شيئاً ما فليتهف كل يوم ثلاث مرات عن وعي وانتباه — يجب أن أكون ذلك الشيء . . . وذهب ، فكتب « لاقية » واضحة الكلمات ، وناطها بجدار غرفته ، وفي كل صباح يرتدى ثيابه ، ثم يستقبلها في وقفة عسكرية ، ويقرأ كلماتها المكتوبة في قوة : يجب أن أكون جنرالاً . . .

وإنكم تعلمون أي شيء قد صار نابليون .
 نريد أن نكون مجانين مثل الطفل نابليون . .
 فيتهف كل مصري صباح كل يوم — أنا مصر . .
 نريد أن تصف كل سيدة صغارها وأشباهها قبل منصرفهم من المنزل في الصباح — وتطلب إليهم أن يصيحوا جميعاً — نحن مصر .
 نريد أن تقف « طوير » التلاميذ والطلاب في أبهاء معاهدهم ومدارسهم ليتهف صباح كل يوم — نحن مصر .
 نريد أن يفتح النواب والشيوخ جلسات البرلمان بهذه الصيغة الواثقة — نحن مصر . .
 ولكن بعد أن تمثل مصر في برلمانها تمثيلاً صحيحاً . . ينتظم قراءها قبل أغنيائها .

لن نعرف حقنا حق نعرف أولاً أنفسنا . ولن يعترف أحد بوجودنا حتى تثبت أولاً هذا الوجود . . والسبيل لهذا : أن نقف — لنرى
 وأن نتحدث — لنسمع .

وأن نقف — لنخشي . وقبل أن نقول : نريد — يجب أن نقول : نحن
 وإذا ما سئلت : أئدعو الناس إلى الأنانية ، وحب الذات . وحب الظهور ؟

أجيب : نعم . . يجب أن تتحلى بفضيلة الأنانية . . الأنانية المستنيرة الفاضلة .
التي تحفزنا إلى إدراك قيمتنا . والعكوف على مطالبنا والنهوض بواجباتنا .
والتشبث بحقوقنا .

لقد قلنا التواضع . وبددنا طول الانطواء والانزواء . . فلنبرز إلى الأفق
ولنبصر أنفسنا من جديد .

إن الأنانية البغيضة هي تلك الفردية التي تطويك على نفسك ، وتلفك في
أطماعك وشهواتك . . أما الأخرى التي نريدها — فهي تعرفك بنفسك —
لاتطويك عليها — وتشارك ضحها نخا عظيما . لتملأ أفتك وقراغك . . ولكي
يلخ الشعب هذه المكانة ، ويحقق في مجموعته هذه الفضيلة ، يجب أن يبدأ
أفراده بذلك .

غادر نفسك — إذا كانت نفسك قبوا مشحونا بالأطماع .

وأنشئ لك نفسا جديدة لها مثل ، ونهج ، وكفاح بحيث تتلاقى مثلك ونهجك
وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك . وبكف على نفسك هذه
فلن تكون أنانيا بغيضا ، بل أنانيا مستنيرا . وإذا كان هناك ما يعين على هذه
الطريق بعد أنفسنا ، فهو إتاحة الحرية السياسية لنا إتاحة كاملة لاتكتنفها عوائق
ولا قيود ؛ فمن طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومي والإنساني .

إن الحياة السياسية للأمة تنتظم كثيراً من العناصر والأدوات .

ولكنها تتركز أخيراً في الحكومة والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للأمة سياستها والحكومة تقوم بتنفيذ هذه السياسة وبين
الاثنتين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر في البرلمان وتخضع له . .
وهو يؤثر فيها ويخضع لها .

والطريق المفضى لتحقيق حريتنا السياسية هو . ديمقراطية الحكومة
الديمقراطية النيابية — فلتتحدث عنهما .

ديمقراطية الحكومة :

لكي يكون الشعب حراً — يجب أن يسود . ولكي يسود — يجب أن يحكم . وهذه هي الديمقراطية . حكم الشعب .

ومادامت الحكومة ثمرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ليحددوا بدورهم نوع الحكومة التي ستحكم ؛ فإن الشعب إذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الإصلاح البرلماني . بيد أننا نريد أن نقرر هنا أن الحكم الديمقراطي إذا غربت شمسُه عن أمة ، فقد غرب معه استقلالها ، ومال مستقبلها للغيب . . . وبعبارة أخرى . أن الحكم الاستبدادي يقوض سيادة الدولة ، ويهيء الأمة للعبودية والاستسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية في عداد « الخائنين العظام » — لأنه باستبداده ينزل الشعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال ؛ فيرحب بكل طارق يقرع أبواب بلاده ، ويرى المقاومة ضرباً من العبث والجنون . . ماذا وراءه حتى يحرص عليه ويذود عنه . . ؟

لقد قال الشاعر العربي :

وحب أوطان الرجال إليهموا — مآرب قضاهم الشباب هنالك

فإذا تلفت الشعب وراءه ، فلم يجد له ذكريات سعيدة تستجيشه وتناديه —
ففي سبيل ماذا يقاتل ؟ .

وقال شاعر آخر :

لا إذود الطير عن شجر — قد بلوت المر من ثمره
فإذا أبصرت الجماهير بالأشجار التي أبت أن تظللها من الهجير ، وتطعمها

من الجوع تجتاحها الأعاصير ، أو تعدو على ثمارها الذئاب . فلماذا تدافع عنها ؟
لذلك لا نجد غازيا سار عبر التاريخ إلى مدائن ففتحها ؟ أو عروش فدكها ، أو
امبراطوريات فأذاقها لباس الخوف والدل — إلا كان استبداد الحكم في هذه
البلاد المفتوحة الصريعة ، الطريق الممهدة الذي دخل منه موكب الغازين . .

أنصتوا لغوستاف لوبون يقول (١) :

« استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحررين لها — فقد هرع سكان
سافوا إلى رؤية الجنود الفرنسيين ، واستقبل الناس في مايانس هؤلاء الجنود
بحماس . وغرسوا أشجار الحرية ، وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس . .

» . . وكما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمر أذلها الملوك المستبدون
ولم يكن لها خيال تذب عنه — كان النصر يحالفها ، ولكنه كان يتعذر عليها عند
اصطدامها بأناس أولى خيال وثيق نكيالها . . »

إذن فالحكام المستبدون في أمة هم طابورها الخامس الذي يعمل بشعور أولا
شعور لحساب الغزاة والمستعمرين . . . وهم الذين يحلون الشعب الصلب المتناسك
إلى زبد طرى تجرى فيه السكين . .

وإذن فالأمة يتقرر مصيرها ، يوم ينفض فيها حكم استبدادي ولو تلفع بأردية
زائفة من الديمقراطية . وما أروع محمد رسول الله حين يقول : « إذا وسد
الأمر لغير أهله فانتظر الساعة . . »

أى إذا صارت أمور الأمة بيد من ليس للحكم أهلا ، فانتظر الساعة . الساعة
التي تدق معلنة وفاة هذه الأمة . ناعية سيادتها واستقلالها . . وهل يكون
المستبد أهلا للحكم أبداً ؟

(١) كتاب روح الثورات — تريب الأستاذ محمد عادل زمير . .

أنه لا يكفي شكل الديمقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفي أن يكتب في الدستور . الأمة مصدر السلطات ثم يكون الواقع — أن الأمة ضحية السلطات . . .

وليس يكفي أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لابد أن يجري فيهم دم مصر وآلام مصر وآمالها . .

إن الحاكم الديمقراطي يحترم الشعب . ويجعله في عينه أجل من أن يخدعه وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعاً أدناها كأخطرها . ولطالما تستبد بنا الدهشة والعجب حين تضرب أمورنا فنفقد توازن الحكم وديموقراطيته وتتساءل ما نحن؟ صرب — أم فراعنة . . ؟ ثم تكاثف الدهشة حين نجد أنه لادين العرب الذين هم آباؤنا ولادين الفراعنة الذين هم جدودنا — يبيع الاستبداد ، وينزع الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام . . .

فهذا هو الرسول يقول : — « مامن إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والحلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجاته . . »

ويقول « إذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب من عنده » . ويقول : « اللهم من ولي من أمر أمي شيئاً ، فشق عليهم فاشقق عليه » ويقول : « أن شر الرعاء الحطمة » .

ويقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم ، وتصلون عليهم . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » .

ويقول : « إذا أراد الله بالأمير خيراً — جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه . وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ؛ إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعبه . »

وهذا عمر يعدو وراء بعير شارد من أبل بيت المال . . . حق إذا سئل :
— ألا تتعقبه نحن ، وتستريح أنت يا أمير المؤمنين ؟

يجيب وهو يهدير . — ولماذا إذن أكون للناس واليا وأميرا . . . والله
لوضع عقال بعير بالعراق لحشيت أن يسألني الله عنه ، ويقول لي : أنستودعك
حقوق الناس ، وتنأى عنها يا عمر . . . ١٩

أى أن عمر رضى الله عنه يقدر مسئوليته إزاء حق الشعب في عقال بعير —
في جبل من مسد لا يساوى شيئا — فكيف كان تقديره إذن . لحق الشعب
في الحرية . . . ؟

هذا هو الإسلام — إذا كنا مسلمين . . .

وماذا في دين المصريين الأقدمين . . . ؟

إنها نفس التعاليم التي تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعدل
والمساواة بين أبنائه جميعا .

لنضع أبصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين من الجزء الثاني لكتاب
« قصة الحضارة » ، . حيث نطالع الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على
الوزير حين يتقلد منصبه . . .

« اجعل عينيك على مكتب الوزير : وراقب كل ما يحدث فيه واعلم أنه الدعامة
التي تستند إليها جمع البلاد . . . ليست الوزارة حلوة ، بل هي مرة . . . واعلم أنها
ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمرء والمستشارين وليست وسيلة لاتخاذ
الناس أيا كانوا عبيداً . . .

« انظر . إذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن
يجرى القانون مجراه في كل شيء . ، وأن يعطى كل إنسان حقه . . . واعلم أن الهابة

بغیضة إلى الآله ، فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه . . وإلى المقربين إلى الملك — نظرتك إلى البعيدين عن بيته ..

« انظر . أن الأمير الذى يفعل هذا — سيقى هنا فى هذا المكان . وليكن ما يخافه الناس منك أنك تعدل فى حكمك ..

« ارفع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آیات یفسدها التعليق ، فلندعها متألقة ولنتساءل مرة أخرى : من أين لنا إذن ما یصبح حكوماتنا جميعاً (١) بصیغة العتو والاستبداد ؟

من الاسلام . . لا . من المصرية القديمة . . لا .
إذن . فمن أين . . . من أين تهب هذه الريح السموم ؟
لا بد أنها من الماضى . . حيث الاستعمار التركى المتوحش .
ومن الحاضر . . حيث الاستعمار الأنجليزى الحديث ؟

لقد أتى على جماهيرنا المستعبدة حين طویل من الدهر زيف فيه دينها تزيفاً هادفاً ليسلس قيادها ، وتلاشى أمام الطغاة إرادتها . قليل للمسلمين منا : إن نبيكم يقول :

« استمع لأمرىك وأطعه ، وأن جلد ظهرى وأخذ مالك »
« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب »
« الزموا طاعة أمرائكم ، وإن ظلموا . . فأن الله مبتليكم بهم »
وحاشا محمدا . ثم حاشاه أن يقول من هذا شيئاً .
وقيل للمسيحين منا : إن دينكم يقول :

(١) المقصود الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى من الكتاب . . . ١

« أيها العبيد - فلتخضعوا لأسيادكم ، والخوف يملأ نفوسكم . ولا يكون
هذا الخضوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقين فحسب - بل وللشريرين أيضاً » -
- رسائل بطرس - .

« أيها العبيد - أطيعوا 'سادتكم في خوف ، ورعد . . » الرسالة الموجهة
إلى الفيزيين .

« على جميع من يخضعون لنيرالرق أن يعتبروا أسيادهم خديرين بكل تبجيل »
- الرسالة الموجهة إلى تيموثيوس - .

وحاشا روح الله - وحاشا حواريه الصادقين أن يقولوا من ذلك شيئاً . إنها
إذن مؤامرة .. قتل الاستبداد حباً لها من زمن وسلك فيها ضحايا من الشعوب ..
فلنحذر .. ولننمش أحراراً كما ولدتنا الأمهات . وتشقت عنا الأرحام .

الديموقراطية النيابية :

وإذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية في الأمة فالأمر
منها وأخطر الديموقراطية النيابية . فالبرلمان هو الذي يثمر الحكومة ويمين
لونها . وعملية الانتخاب هي التعبير الصحيح عن إرادة الشعب وحرية السياسية
إذا لم تخالطها رغبة ولا رهبة .

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر أهمها :

(أ) حرية الترشيح . (ب) حرية الاقتراع .

ولنبذ الحديث عن أولها .

حرية الترشيح :

إن المواطن الذي يتقدم إلى الناخبين طالباً ثقتهم ، يجب أن يكون حراً

ويجب أن يشعر بالحرية المطلقة شعوراً غامراً حتى يوائمه الإحساس الصادق بكرامة
مهمته وقديسيتها .

ولكن الترشيع في بلادنا مصفد بهذه القيود .

١ — الدوائر المغلقة . .

٢ — العصية والحزبية .

٣ — القيود البرجوازية . .

أما الدوائر المغلقة فبدعة في حياتنا السياسية ، وهي نوع مهذب لأسواق
الرفيق ، لأن فحوى هذا النظام أن تتفق الأحزاب على توزيع مناطق النفوذ ؛
فيأخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيه من لا تكون
لهم موهبة سوى التبطل والفراغ . ١ ويحرم على ذئاب الحزب حرف (ا) أن
تعتدى على ذئاب الحزب (ج) .

بل لماذا نظم الذئاب ؟ . .

إن نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة في الترشيع ويجعل أحزابنا
قريبة الشبه (بالفتوات) الذين يتقاسمون الشوارع والأحياء ؟ ١ ولا بد لكى نعال
حريتنا النياية من إلغاء هذه البدعة وتحريرها .

وليس بخاف عنا ، أثر العصبيات ، وقوائم الترشيع التى تصدر عن الأحزاب
في تسيير المعركة الانتخابية في طريق بعيدة جداً عن الحرية والديموقراطية . ولقد
أهدرت من وقتى كثيراً لكى أتمكن من مراجعة بعض قوائم الترشيع الحزبى
التي صدرت في بلادنا ، وأمامى الآن منها خليط متنافر . لأحزاب عدة لن أذكر
لك أسماء . . وحسبك أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم أسماءهم
ليسوا أكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق . ١

لقد آمنت بأن الأحزاب اليوم لا تحترم الشعب أبداً ما دامت تختار له هذا الاختيار . . ؟

إن الحزب — فيما يبدو — لا يريد نائباً يشرفه بمقله أو مواهبه واسكنه يريد — بوليصة تأمين — تؤمن خزينته من الأعواز وتقوده من الخذلان .. وهكذا تباع الأحزاب — الناخبين إلى مرشحها ، ثم يعود المرشحون لبيعوا الناخبين ومصالحهم إلى الأحزاب ولسنا ننظر إلى خطر قوائم الأحزاب من هذه الزاوية وحدها — بل من الزاوية الأخرى حيث تستعمل الأحزاب نفوذها — غالباً — فتعمل على إنجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب . .

ومن زاوية ثالثة — حيث يتسم النظام النيابي بما قد يصلح وصفه بالحسة والدناءة . . إذ لا يسجل اسم مرشح في قائمة الحزب إلا إذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح — هذه جريمة بشعة . . فنحن نعلم أن المرشح لا يدفع ألفاً من الجنيهات مثلاً إلا ليضمن بها الفوز والانتصار. والحزب يعد ذلك ويمنيه ويعمل جاهداً لأجله ويقبض على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

أهي ممسرة ، أهي غش وتدليس ، أهي تجارة رقيق ، يباع فيها الناخبون للمرشحين . . ؟

نعم — هي كل ذلك .. والغرم دائماً على الشعب الأسيف والمرشح الذي يرشوا حزبه بألف جنيه ، وينفق في المعركة مثلها : ويعود فيتقاضى مادفعه أضعافاً مضاعفة ، ومن أين .. ؟ من الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو إذا نجح في الانتخاب يصير رجلاً ذا نفوذ .. وهذا النفوذ لا يتحرك لقضاء حاجة إلا بشئ لا يسمونه طبعاً رشوة ، ولا ممسرة . إنه فقط — مصاريف الانتقال — وعن القهوة أو ، ثمن البنزين ..

وللذين يوضعون في قوائم الترشيح أنماط متفاوتة ، تختلف باختلاف الدائرة

والحزب ، هل الدائرة مقفلة أم مفتوحة ؟ لكل من الاثنين ثمن ! وهل
الحزب ضالع مع الحكومة التي ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من
التقديرين ثمن ... ١١

وفي أحزابنا تفرع أجراس للزائدة والأوكازيون . ، ففي هذا الحزب تساوى
الرأس ألف جنيه مثلاً .. ١١

وإذا كنت رجلاً رفيق الحال فلا تحزن .. متجدد أحزاباً أخرى رقيقة الحال
مثلك تشمن رأسك بثمن بخس — مائة جنيه مثلاً .. وخمسين أيضاً إذا هان
عليك رأسك كل هذا الهوان .. ١

فإذا غادرنا القوائم إلى العصبيات ، ألفينا فساداً كبيراً — فهناك ترى مثلاً
رجلاً مفرط الجسامة ، متنفخ الأوداج . حذار أن تطيل إليه النظر ، وتحملق
بعينيك الفضوليتين في وجهه الكريم .. إنه السيد المالك .. الذى يملك القرية
كلها .. وربما يملك معها القرى التى حولها .

حسب هذا السيد حين تخاو الدائرة — أن يعلن فى كلمات متأقفة متكلفة أنه
سيدخل المعركة ، فلا تكون قط معركة .. لن يجرؤ أحدهما تكن ثقافته على
مواجهته فضلاً عن مزاحمته .

ولقد حدث مره أن اجترأ رجل فاضل جداً ، ومثقف جداً — على ترشيح
نفسه فى إحدى دوائر الصعيد أمام سيد كبير . ؛ فضرب السيد الأرض بقدمه
فانشقت ، وخرج منها أحد خدمه وعبدانه . ، فانسحب السيد من الترشيح ،
وأقسم بعزة آبائه أنه لن يرشح سوى هذا ، وإن ينجح سواء .. هذا الخادم
الأحمى الذى أراده سيده نائباً ، فسكران .. ١٢

وقد كان . ، وأخرج الرجل المثقف الفاضل . .

كان يمر بالدائرة في بضعة أنفار من عصيته المتواضعة . . وكان خادم السيد
يمشي في موكب يزرى بالمواسكب ، وكرتال تهتف الدنيا له . . .

لابأس أن يرشح الخدم وينتخبوا — فهذه دعوتنا ورسالتنا — أن يحرر
العبيد . وترتفع قيمة الانسان . . . ولكن الموقف هنا مختلف اختلافا بعيدا .
وهو من الواضح بحيث يعتبر تفسيره اتهاماً لفطنة القارىء وذكائه . .

إن العصبية وقوائم الترشيح تطأ حرية الاقتراع بأظلافها ، وتبددها تبديدا .
والدوائر المنغلقة كذلك — ورابعة الأثافي ، إن كان للأثافي رابعة . . هي :

القيود البرجوازية :

إنها تسجن إمكانيات الشعب في قانون . قانون لا يسمح لك بالترشيح إلا
إذا دفعت مائة وخمسين جنيا . . وإلا إذا كانت ضريبة الدخل التي تدفعها
عن أملاكك وأطيانك مائة وخمسين جنيا كذلك ، إذا كنت ستدخل مجلس
الشيوخ !

إن مقاييس الجدارة في بلادنا لا تزال أبعد ما تكون عن الواجب الجدية
بالاحترام . إنها تناط بمالك . . ووسامتك . . ونوع الدوحة السكرية التي
تنتسب إليها . . . وقد يحسب للثرون أن مائة وخمسين جنيا للتأمين شيء غير
معجز . ، وهم معذورون لأن أكوام الذهب والورق التي أمامهم تخفي عنهم
ملايين المواطنين الشرفاء . . الذين يعيشون من اليد للفم ، والذين قد يتقاضى
أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيا ولكنه يوم يموت لا يجد أهله ممن الكفن

الذى يلف حطامه ، وعظامه .. ثم إن هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ،
برجوازية ، مشبته .. قد يقال : أن هذا التأمين الذى تؤهلك للترشيح ، أو
ذلك الشرط المادى الذى يشترط ملكية خاصة تؤهلك لمجلس الشيوخ .. إنما توخى
بها القانون تنظيم الترشيح ، وحصره فى نطاق معتدل معقول حتى لا يتقدم كل
« من هب ودب » ..

وسنفرض أن هذا هو الباعث ، وأنه باعث سليم . وعندئذ نسأل : —
لماذا يناط الترشيح إذن بالمال . . ؟ .

هنا تبرز الأغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع ، والتفكير الأقطاعى
الذى يمسك زمام المجتمع وزمام الحياة ..

فليكن المناط فى هذا المجال — العلم . المؤهل العلمى . وحتى هذا نحن
لا نرضاه .. ونرفض أن تقيد إرادة الترشيح بأى قيد سوى قيد المواطنة .
والصلاحية ..

ومن القيود البرجوازية أيضا السن ..

فأنت ؟ مهما تكن مواهبك ونضجك ، لا تكون نائبا حتى تبلغ الثلاثين . ،
وقد تسقط فى أول محاولة لك ، وفى الثانية أيضا . ، فلا تتمكن من خدمة
بلادك داخل البرلمان إلا عند الأربعين مثلا . ١

السنا نمنح الشاب ابن العشرين ، أو ابن الثالثة ، أو الخامسة والعشرين
شهادات عليا ، تتيح له أن يكون محاميا ، أو طبيا . أو أستاذا ، أو قاضيا . : ١٢
فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لاتهم الدولة ، فتعهد بها إلى
الصبيان .. ؟ ١٣

أى فارق بين وكيل النيابة فى سن الخامسة والعشرين يجلس إلى يمين
القضاة . وبين وكيل الأمة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة البرلمان .. ؟
فلتنفض هذه القيود ..

فلا يشترط التأمين ، ولا دفع قدر من الضرائب محدود ، ولا سن الثلاثين ،
ولا الأربعين : إن سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ، وحددته بأحدى وعشرين
هى السن اللائقة للبرلمان بمجلسيه — النواب والشيوخ ؟ نبدأ منها ، ونمضى
مادام معنا ثقافة وقدرة ، وحياة ..

وبعد ؟ فإن مجالسنا النيابية حتى اليوم (١) لم تمثل الأمة ، بقدر ما مثلت
الحزب . وكان هذا سبباً مباشراً لكل مانعائه من ويلات .

والبرلمان الذى يأتى ثمرة هذه الأوضاع الفاسدة — لا يحكم الحكومة بل تحكمه
ولا يعزف عن تأييدها أبداً عدا محاولات ناشئة بدأتنا نحسها فى البرلمان القائم .
قد تتضاعف وتنمو — وقد توجه إليها صيحة زاجرة ، فترتد على أدبارها ، وتنكص
على أعقابها ..

فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ — وافق مجلس العموم البريطانى بأكثرية (٢٣٥)
صوتا — ضد (٢٢٩) صوتاً على تعديل تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض
السائل البرلمانية أى أن حزب المعارضة انتصر على الحكومة فى برلمان لها فيه
أغلبية الأعضاء والآراء . فما دلالة هذه الظاهرة التى تتكرر كلما تكررت
مقتضياتها . ؟ إنها تدل على أن النائب هناك ، يعرف نفسه جيداً ويدرك أنه يمثل
الأمة فى البرلمان ويمثل الحزب فى الأمة .

أما عندنا ، فالنائب يمثل الأمة فى الحزب ، ويمثل الحزب فى البرلمان ؟ فارق
كبيراً جداً — فمضى نبلغ مبلغ الرجال . ؟

(١) المقصود هو الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى . . . (١١) .

(ب) حرية الاقتراع :

الاقتراع - هو الأدلاء برأى حر في اختيار ممثل لمجموعة من الناس - يشر تلك المنظمة النيابية التي نسميها « البرلمان » .

والبرلمان - هو الهيئة المختارة الممثلة للأمة ، والتي تشر الحكومة الديمقراطية ، وتراقب سلوكها .

والحكومة - هي الهيئة التي تقوم بحماية الدولة ، وتنفيذ قوانينها . ورعاية مواطنيها ..

وإذن ، فنحن حين نختار نوابنا ، أو شيوخنا - نختار في نفس اللحظة الحكومة التي ستحكمنا ، بل والقوانين التي ستسيطر على مجتمعا . والسياسة الداخلية والخارجية لبلادنا .

فإذا كان الشعب اليوم بمعزل عن اللؤثرات الحقيقية في سياسة وطنه لا يسهم في تقرير مصيره .

وإذا تكون كراهية يدعى لها - وإذا يحاس الخيس يدعى جندب .
فمعى هذا - كان الله معه - أنه لا ينتخب ولا يختار . . وإنما يساق سوقا عنيفا ، أحيانا ورفيقا أحيانا أخرى ، إلى التصديق على الدين تضعهم الظروف السعيدة أمامنا من مرشحي الأحزاب ، ومرشحي السلطات ، ومرشحي العصبية .

هذه هي الحقيقة . إن الحرية السياسية في بلادنا كالإشتركية تماما . كلتاها أ كذوبة على شفاه الكبار . . ووهم في أحلام الصغار .

أصحیح أن الناخبين حين يساقون إلى الصناديق بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رأيهم وإملاء إرادتهم .. ؟

أصحیح أن هذا المواطن المحطم المتهاك الذى يحمل هموم الثقلين . .
ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطون جائعة . . هذا المسكين الذى برقت أمام
حاجته وحرمانه ورقة بنسكوت تتيح له امتلاك خمسين قرشاً يرشوه بها أحد
المرشحين .

أتظنونه سيأبى . . ويذهب ليختار مرشحاً آخر لا يرشو ولا يعطى .
ومواطن آخر . . ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير . فيؤمر أمراً
باختيار مالكه . أو من يهبه المالك رضاء ، فيمضى صبيحة الانتخاب أسيفاً
مكتئباً يحسد الآخرين الذين هم فى منح أصواتهم أحرار يبيعونها بالثمن الذى
يشاءون . أتسمون هذا انتخاباً ... ؟

أعرف فى مصر « تفتيشاً » غليظاً أنا أحد رعاياه . . وقريقتى كلها تقع بين
فكيه ، وفى دائرة نفوذه - ومعها بلاد وبلاد . .

فإذا جاءت انتخابات . لم تجد المرشحين هناك يزاحمون على أبواب الناخبين
ولا يسمعون إليهم . بل يتسابقون إلى سراى التفتيش . وهناك يجلس « البك »
« للفتش » ينقر مكتبه الانيق بأعملة سبافته ، فيهب مكان أربعة بلاد وقوفاً ،
وصفوقاً . ثم يوحى إليهم بطرفه ، فيخروا ساجدين .

فعندما تزور « البك » للفتش وتصلان معاً إلى إتفاق معلوم . ويعدك بأن
الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعاً أصوات هذه البلاد جميعاً وفى يوم الانتخاب ؟

من تنتخبون . . ؟ التفتيش . ١ من نائبيكم ؟ التفتيش . ١

انظر ، إنهم لن يختاروك فحسب ، بل سيجعلونك تفتيشاً . . ! حدث هذا ،
وفى يوم من تلك الأيام التقى أستاذ قاضل بأحدى المدارس الثانوية بمعاون
التفتيش ، وهو واقف بين الناخبين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ،

وكرامة الإنسان ، وثار في عنف . وثار معاون التفتيش في عنف أكثر ..

كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها ..

وكان الثانى يتحدث بقوة تفتيش باذخ عظيم ..

كان الأول يترافع عن حقوق الإنسان ..

وكان الثانى يترافع عن حقوق الأطيان . ١

ما الكرامة .. أمام تفتيش ، في بلد كصر . ؟ ١

وما حقوق الإنسان ، أمام الأطيان ، وآلهة الأطيان في بلد كصر . ؟

انتخاب هذا .. أم انتهاب ؟ اختيار هذا .. أم إقهار ؟

كل شيء في بلادنا مظلوم ، حتى اللغة ، حتى الكلمات .

إن الانتخابات - هنا ملاحمة عظمى ، تصرع فيها إرادة الشعب وحرية .

وهذه الجماهير المتراكضة تسخر فقط لحمل الأعضاء على الأكتاف حتى تبلغ بهم

باب البرلمان . وهناك يسمح لها بالعودة ، فتعود إلى نجوعها ، وجوعها تفرع

من الحية ، وتزدرد آمالها اللاعبة وأمانها للتعبة . ١

إن حرية الاقتراع تعيش في هذه الاصفاد :-

(١) الاقطاعات والتفتيش : وقد ضربنا من واقعها مثلاً .. نعتقد أنه

يتكرر في كل ضيعة وتفتيش .

(ب) الرغبة العامة في التزييف ..

وهى تبدأ من رجل البوليس ، وتنتهى عند رئيس الحكومة .

أما رجل البوليس الذى يقترب هذا الوزير ، فيكون حافزه غالباً المجاملة ،

أو العاملة ... ١١

ولسنا هنا نعيب هيئة البوليس . أو تهما . فليسوا سواء .. إننا نشتك مرضاً من أخطر أمراض مجتمعتنا ، ولبعض رجال البوليس دور ملحوظ في نشوئه ، ومضاعفاته والبعض الآخر عرف كريم . هذا الرجل البوليسى الذى يخون واجبه ، ويسىء استعمال سلطته ، يستغل ضعف الجماهير وخوفها ، فيمسكه أزمته بواسطة شيوخ الحفراء فى القرى وشيوخ الحارات فى المدن ، ثم يوجهها حيث يريد . إنه يهدر أمانة الواجب من أجل مجاملة أو معاملة ...

أما الحكومة^(١) التى تجرى الانتخاب - فأما أن تكون حزبية ، أو لاتكون .. فإن كانت ، فإن الحزبية تدفعها إلى تأكيد ذاتها ، ونشر لوائها فزيف - وإن كانت محايدة تتناهب الفللفة الكيافيلية .. فالغاية تبرر الوسيلة والغاية عندها ، إيجاد برلمان صالح حسب فهمها الخاص لكلمة صالح . والوسيلة هى إكراه الناخبين على اختيار الصالحين ، الصالحين فى نظرها أيضاً وهى تفنع نفسها بأن الشعب جاهل ، ولا يحسن الاختيار . وهذا حق . ولكن ما السبل لأن يتعلم ، ويحسن الاختيار ؟

الطريق هو الحرية ، والتجربة ..

دعوه يتخير ، ويخطئ ، ثم يتخير ، ويخطئ ، حتى يبرز اليوم الذى تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختار فى توفيق وسداد .
ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعياً رشيداً .. ؟

إنه يمر بأدوار الطفولة والمراهقة والشباب متعثراً بالخطايا والأخطاء حتى إذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى - اتخذ من عثرات ماضيه وتجارب أمسه درساً هادياً ، وعصمة واقية . فليعلم رجل البوليس - أن الواجب - أصمى

(١) المراد طبعا اليهود السابقة ١٠٠ (١٩)

من المجاملة ، وأبقى من للعاملة .. وليتق الله في أمته التي قطعت في ممارسة الحياة
النيابية سبعة وعشرين عاماً ثم كأنها تبدأ اليوم .. بل كأنها لم تبدأ بعد .. !
وليعلم الحاكمون^(١) أن الخطأ وسيلة الصواب . ولا بد أن نخطئ اليوم
لنصيب غداً . وأن الحاكم الذي يزيغ إرادة الأمة إنما يقف نموها ويلاشي
شخصيتها .

(ج) رشو الناخبين ..

وهذه الرشا التي تقدم للناخبين جهاراً علناً تضرب حرية الاقتراع في الصميم
وقد تسأل : أليس الناخب الذي يبيع ثقته بدراهم معدودة يصنع ذلك مختاراً ،
ويصوت في حرية .. ؟

والجواب طبعاً - لا - لأن الإكراه ليس فقط للقوة ، بل هو أيضاً للضرورة
وهذا الذي استكرهته ضروراته على بيع صوته . مكره لا مختار . ففضوا عن
عنقه أغلال ضروراته ، وحاجاته .. وإلى أن تفعلوا ، فيجب أن تحرم الرشا في
الانتخابات تحريماً زاجراً ، وتشرع عقوبة مؤدبة لا للأخذ - بل للمعطى -
فالمرشح الذي ثبت عليه أنه رشا ناخبه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات
متتاليات من تاريخ الجريمة لعله يتذكر أو يخشى ، فإذا عاد ، حرم هذا الحق
إلى الأبد .

من كان منكم لم ير .. فقد رأى آخرون ، مرشحاً غير محترم .. كان سيصير
نائباً محترماً .. ! يقف أمام لجنة الاقتراع بأحد أقسام البوليس ، ويشطر الجنيه
شطرين ، ثم يعطى المقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتأكد من انتخابه ،
فإذا عاد تسلم نصف الجنيه الثاني ...

(١) المراد أيضا اليهود السابقة .. !!

يحدث هذا - علنا ، وأمام قسم البوليس وبعض رجاله ..
 إن نصف الجنيه كان في المعارك الانتخابية الأخيرة ، خطيبها الساحر ،
 وفارسها المغوار ، وسيظل كذلك حتى تقضى عليه ، أو يقضى علينا .. !
 وبعد ؟ فإن كثيرين يحاولون أن يعزوا فشلنا القوي إلى ضعف الرقابة
 البرلمانية على الحكومة .. ولكن أية رقابة هذه التي تهمها بالضعف ، إذا كان
 البرلمان نفسه لم يوجد .. ؟

إن الحياة البرلمانية الحرة الطليقة المنتجة - لا تزال مقترنة بالسلاسل التي
 ذكرناها ، والتي نعيد لها لكى لا تنسى ..

(أ) القيود البرجوازية ..

(ب) نفوذ التفاتيش . وآلهة الاقطاع ..

(ج) إغراء الناخبين بالرشوة .

(د) الرغبة التامة في التزييف .

(هـ) ضعف الأيمان بصلاحية الشعب للاختيار .

(و) الدوائر المغلقة ..

(ز) قوائم الترشيح ، وسيطرة العصابات ..

وحدث نتيجة لهذا ، أن نظام « حكم الأسر » الذي كان قائما في العصر
 البدائي وفي الامبراطورية الرومانية القديمة . صار هو الحكم القائم في مصر .. !

فالذين يسرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هم حملة « السندات » وأبناء
 الدوات .. والبرلمانات عندنا لا تمثل الشعب كما تمثل الأسر الكبيرة ، والبيوتات
 الشريفة .. وإذا كان البرلمان هو الذي يشر الحكومة استطعنا أن نعرف
 نوع الحكومات التي تتعاقب علينا . لقد طان بنا الجدل ، والخلاف حول لون الحكم
 في بلادنا - أهو ديمقراطي .. ؟ أم هو أوتقراطي ؟ - ولكن بعد استعراض
 الوضع الثابت عندنا على هذه الصورة لا نشك في أنه لا ديمقراطي - ولا أوتقراطي

إنه شيء آخر استعرناه من القدم - هو بالأنقراطية أشبه - وأسمه يا أبناء وطني - حكم الأسر ..

ولقد كان الركود ، والإهمال أثراً محتوما لكل انتخابات تجري على النمط الكريه الذي شاهدناه حيث تشر ندوات أعيان .

خطر لي أن أقف على مدى اهتمام الأعضاء بحضور جلسات البرلمان ، ومددت يدي نحو الضابط أسألتها وأستفتيها . فوجدت حشداً كبيراً من النظائر والأشياء لهذا الإحصاء الذي ستقرأه الآن . وأنا أنقله إليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد العادي الواحد والعشرين فانظر :

نسبة الغياب	رقم الجلسة
٤٥ شيخا	الرابعة
٣٠ شيخا	الخامسة
٥٠ شيخا	السادسة
٤٠ شيخا	السابعة

جلسات تعرض فيها سياسة الأمة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب عنها خمسون عضواً ، أو أربعون .

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد حتى يتغيبوا جميعاً .. لعل حضرات الأعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا يضيعونها في حضور جلسات لا جدوى لها ..

وتمقتب المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت أن الجلسات التي تنظر فيها المشروعات الجلية الخطيرة المخرجة تظفر بنسبة كبرى من الغياب في أحيان كثيرة .. وهنا يكون التغيب طبقاً لخطه مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين يصير العدد غير قانوني ، أو فراراً من التورط في مخالفة الحكومة ومعارضتها ..

واللجان البرلمانية هناك غليظة الإحساس وبطيئة بحاجة الشعب وآلامه
ولأنكاد نلتبس دليلاً لذلك حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها . وحسبنا
مثلاً مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم — محمد خطاب — بشأن استثمار
الأراضي المستصلحة ..

أن قصة هذا المشروع قصة كثير من المشروعات الصريعة التي اتخذت من سراى
البرلمان ضريحاً ..

وفي هذه الخطوات تنوى قصته . وقصتها ..

(١) قدم المشروع في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٥ .

(٢) عرض على خمس لجان — الاقتراحات ، المالية ، الشؤون ، المالية مرة
أخرى . العدل رقم ٢ .

(٣) اختصر من ٤٨ مادة إلى عشرين مادة .

(٤) لا يزال المشروع تأمها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ إلى عام سنة ١٩٥١ ونحن
نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقترح عليه فيها من مجلس الشيوخ
ولكن إحساسنا يرفض التفاؤل .. وتوقع أن يرتطم المشروع في صخرة .. أو
يسقط في حفرة .. لماذا ؟

لنفس الأسباب التي جعلته يهمل ، ويدس في الأضياع كل هذه الأعوام

وتتلخص في أن المشروع شعبي يهدف إلى تهريم بيع الأراضي الحكومية التي
تستصلح ، للمالكين . ويمهها فقط ، بوسائل ممكنة للمعدين الذين
لا يملكون شيئاً .

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الأرض وتعدّها للزراعة ثم
بعض الكبراء والباشوات ويشترىها بأبخس الأثمان ..

فيصادق مثلاً — أن يشتري قارون كبير ضيعة واسعة من هذا الأرض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ليقتنيها ، أو ليبيعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعة جنيه .. !

فلو أن الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التي يختار فيها نائبة أو شيخه فاختارهم من الدين ينوءون بمثل أعبائه ، وبإوائه . لما مكث مثل هذا المشروع أكثر من أسبوع .

وإذا كنا نبغض الظروف التي تجعل الناخب مطية تسخر وتذل ، فلا يفوتنا أن نقول للناخب نفسه : أنت أيضاً مسئول .

لماذا لا يستعمل المثقفون حقهم في انتخابوا .

إن الإحصاء الرسمي ينبئ بأن الذين ينتخبون من عام — ١٩٢٤ — إلى اليوم هم الأميون من عمال وفلاحين ، وإذا ظللنا نحن الذين أخذنا من الثقافة بحظ . متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه أحسن وسيلة نتحرر بها وتنتحر بها البلاد .

وأخيراً — الحرية .. لا التسامح :

نكتفي بها القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعاً — حرية النقد ، والفكر ، والمعارضة .

وبقي شيء يجب أن يختم به هذا الفصل ..

ولقد لاحظ القارئ أننا لانخص بمحدثنا في هذا الكتاب الشعب وحده ولا الحكومة وحدها . بل هما معاً . وهذا ثمرة اعتقادنا بأنه في الامكان أن يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل أهدافها . ولكن

الحاكمين عندنا هم الذين لا يريدون .. وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئا من
حرية ، فباسم التسامح والعطف ، لا الواجب والحق .

ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية ، لا بالتسامح ، فالتسامح شيء يعتمد على الرغبة ،
والتفضيل .. أما الحرية فحق محتم .

والتسامح يشمر هبة يمكن استردادها .

والحرية تشمر حقوقا مكسوبة خالدة .

والحاكم الذي يمكنه من حق باسم التسامح يستطيع أن يسلبني نفس
الحق باسم التعصب ، ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، رجلان كالخا من
أجل الحرية كفاحا باسلا - هما توماس بين ، وميرابو .. يقول « بين » .

« ليس التسامح عكس التعصب ، بل هو تلفيق له . وكلاهما تحكم واستبداد
فالتسامح يزعم لنفسه حق الحرية ، والتعصب يزعم لنفسه حق منع الحرية » (١) .

ويقول ميرابو :

« إن الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة التسامح كأنها نوع من
الاستبداد ؛ لأن السلطة التي يترامى لها أن تتسامح ، قد يترامى لها أن تتعصب » .

هذا كلام جليل ، ويجب أن تؤمن أعرق الإيمان أننا — نحن الشعب —
إن نال الحرية . بل ولن نكون لها أهلا ، حتى تكون الحرية — لا التسامح —
المحور الذي تدور حوله حياتنا ، وتناط به وجهتنا . إن الحاكم الذي يتسامح
مع أمته متأله دعى . وهو لا يوجد إلا في الأمم التي تسودها فلسفة البر والإحسان

والخيرات .. هناك يتسكى على أريكته ، وينفخ أوداجه ، ويعلن أنه يمنح
رعاياه وعبداته مايجود به من حرية وحق . ! أما الحاكم الرشيد ، فانه يجل
الحرية عن أن يبدلها كما تبدل النخ والصداقات .

إن « توماس بين » يصعد بالحرية إلى قمة الأجلال حين يضرب للتسامح
هذا المثل ..

« لو أن أحداً قدم إلى البرلمان اقتراحاً بمشروع قانون يسمح لله أن يتقبل
عبادة اليهود والأتراك أو مشروع قانون يمنع الله من قبول عبادة اليهود والأتراك
لكان ذلك تجديفاً في الله وكفراً به .. »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحرية لها ولعبا — والذين يتجشأون كل يوم
قانوناً يسمح للشعب بنصيب ضئيل من حريته وقانوناً يحرم عليه منها كثير
لا يقدرّون الحرية قدسها وهم يجدفون في حقها ، وفي حق الشعب تجديفاً
وقحاً عنيفاً .

ومن أسف أننا نعرضهم — أحياناً — على ذلك . فنحن في تعاملنا
للمادى والأدبى نقيم هذا التعامل على أساس من التسامح لا الواجب ويبدو
ذلك واضحاً في مسائل العقائد والتقاليد والفكر . فأقصى ما نسمح به لأنفسنا
فيما عسى هذه — هو التسامح ، والتسامح كثيراً . ! ومنشأ هذا التزمت أننا
ضعفاء ، فاقدو الثقة بأنفسنا . وإذا كان فاقد الشيء لا يعطيه فقد عجزنا عن الثقة
بما في الحقائق من قوة ذاتية تكفل لها الرغبة والبقاء ، ومن ثم جعلنا وسيلة
حمايتها الاملاء ، لا الاقتناع . . والتسليم لا الاقتناع ، وحرمانا الفكر حقه في
الحرية ، ومنحناه قليلاً من التسامح . وبسبب هذا الغباء نضبت الحياة من
تقاليدنا وأفكارنا .

يألتنا نصغى لهذا النبأ ونعيه .

فقد ذهب إلى الرسول عليه السلام نفر من أصحابه ، وقد ذهبت ألبابهم روعا ومخافة وقالوا له :

— يا رسول الله ، إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ، أيسر عليه من أن يتلفظ به . . . مشيرين بهذا إلى ما كانوا يجدونه في أنفسهم من شك عاصف في الله ، كما وضحت ذلك رواية أخرى للحديث .

فأجابهم الرسول : الحمد لله . . . هل وجدتموه ؟ هذا صريح الإيمان !
هنا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح .

لقد كان قادرا على أن يقول لهم : لا بأس ، عفا الله عنكم . . . أو سيغفر الله لكم . وهذا هو التسامح ، ولكنه كان أكثر إجلالا للحرية . حتى حرية الشك ، والاسترابة فاعترف بها ، وجعلها محض المعرفة ، وصريح الإيمان . وكان بها حفيظا . ذلك أنه يعلم أن الحرية حق للناس ، وأن تمتعهم بهذا الحق كاملا غير منقوص ، هو أفضل الوسائل لترقية إنسانيتهم ، وتعلية نزعاتهم وهدايتهم إلى الحق ، وتثيبتهم على الهدى . ويعلم أن احترام حرية البشر ينعش فيهم كل قوى الفضيلة والخير والجمال ، فلم يتسامح معها . بل سلم بها ، وزكاها

إن اليوم الذي يرفض فيه الشعب أن يساوم على حرته أو يتناولها من أكف التسامح ، والإحسان — هو اليوم الذي يبلغ فيه رشده ويقف على قدم المساواة الفاضلة مع الشعوب الحرة ، والعالم المتحضر الكريم . وقبل أن تنهى هذا الدفاع عن الحرية تقول : إنه إذا كان في تصويرنا للكبت الذي نعانيه مبالغة — فهي مبالغة طفيفة . وإذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير . !

ونحن على الحالين لانسى أبداً تلك الجهود النبيلة التي بذلت منذ ثورة

«١٩١٩» في سبيل الحرية ، وإذا كان الاستعمار الرجيم قد ثبط عزم هذه الجهود وضللها ، فلا بأس ، ولنبدأ من جديد .

ولقد تركنا الحديث عن نوع الحرية المرتبطة بغريزة الاقتناء إلى الفصل الثاني من كتابنا - من هنا نبدأ - فهناك يستبين لنا إثمارها وارتباطها الوثيق بحرية العدل وحرية الضمير .

إن غريزة الاقتناء يناط بها تحرير البشر من أغلال الضرورات .
وليس نشاطها كما ذكرنا في حديث الفصل الأول خاصا بطبقة من الناس دون الآخرين . كما أنه لا يعنى احتواش التفاتيش والضياع ، وأن اقتناء وسائل الحياة الكريمة هو الضرورة الكبرى التي تهتف بها اليوم حضارة الإنسان .

وبعد ، هل نحن جادون في نشدان الحرية ؟
إذن ، فلنوجد الشعب الذي يستطيع أن يتقبل أمانتها .
الشعب الذي تثق به الحرية ، ويثق بها .

الشخصية .. كى تعمل

« أن كل شيء مُعدّ ..
إذا كانت شخصيتنا كذلك »
« شكسبير »

القيصر الأخشيدي ..

هل ذهبت يوما لعيادة صديق لك في مصحة الأمراض العقلية ؟

أم أن أصدقاءك كلهم من العقلاء .. ؟

لقد زرتها يوما لزيارة صديق . وإذا كنت سائرا في وصيد المستشفى ، سمعت
صبيحة صاخبة تتعقبني من وراء قائلة .

— هو .. خلفا دور . !

فلما التفت وجدت عملاقا ضخما طوله شهر ، وعرضه عشر . فسألني :

— هل تعرفني ؟ فأجبت : معذرة ، فإنني لم أشرف بمعرفتك من قبل .

قال : أنا القيصر الإخشيدي !

— مرحباً ، سيدي القيصر .

ثم سألني : هل تحب أن أوليك إمارة . !

قلت : هذا شرف عظيم ياسيدي القيصر .

فضحك . وقال : (خلاص) سأعزل أحد ولائي ، وأضعك مكانه ثم مد

إلى ذراعين مجدولين . وقال : تعال تقدم . !

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى هناك — إلى الولاية .. إنها في المريح وسأحملك بين يدي وتغمض

عينيك ، وأقذف بك في الهواء ، فيحملك إليها . !

قلت له : إذن ، فأعطني فرصة للتفكير .. !

وطفق يحرك سبابته في الفراغ — كأنه يدير قرص « تليفون » — ثم وضع

قبضته على أذنه ، وفمه . وشرع بهمهم ، ويصدر تعليماته باللاسلكي إلى المريح .

تاليا مرسوم العزل ، ومرسوم التعيين .. !

ما أسعد هذا القيصر الذي استراح بما يشعب العقلاء . ١

وما أشبه الجماهير به حين تركب ثبج الغفلة والغرور والانخداع ، فتخال نفسها كهذا القيصر الإخشيدى ، تولى ، وتعزل ، وتضع وترفع ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء . . . ١

وما أظن المستعمرين ، والمستبدين يفرحون بشيء فرحهم للشعوب حسين تصاب بهذه الآفة المسكنة والإخشيدية الواهمة . وهم حين يحسون بواكبرها في شعب - يعملون دائبين على شيوعها وإنعائها - لأنها تشفى قلوب الجماهير مما تجد وتسرب غيظها في مسارب الأحلام ، وتحول طاقتها الهادفة إلى ضجة فارغة . وتحتبس طموحها المتسلق الوثاب في ققم هذه الأخشيدية السعيدة بجنونيتها ، وغرورها . . .

ألا أن شعبنا الضريح يعيش في الوهم ، ويقم داخل أهابه - قيصر إخشيدى - من طراز قيصر المستشفى . . .

ذلك الذى لم يعلم أنه قيصر زائف حتى أشرت إلى السلاسل التى يجررها فى قدميه ، وألقى صفدوه بها لتثبطه عن الهرب ، وتصده عن الاقتراس : وقلت له - لو كنت قيصراً حقاً ، ماسلكوك فى هذه الأصفاد . ١ وألقى على أصفاده نظرة وإحالة حائلة . ثم ضرب صدره بيده وقال :

- آه . . لا بد أنهم عزلوني . . أنا إذن قيصر مخلوع . ١

قلت له ، وأنا أودعه : - نعم . . أنت قيصر مخلوع . ١١

هنا مشابه كثيرة بين قيصرنا هذا ، وبين الجماهير ، ولكن الشبه الوحيد الذى يهمنا وجوده - هو ذلك الوعى الذى يرفع عن أبصارنا الغشاوة . لنعم أننا شعب مخلوع ومعزول .

والآن فلنحرك أقدامنا ، فإن أحسنا بها ثقلاً ، وسمعنا ثعقة الحديد ، وثقبة القيود ... فلنعلم أنها الأغلال .

إن بداية البدايات في نهضة الأمة أن تعرف نفسها ، وتبين في دقة ، وضعها ومكانها ، ولن تستطيع حتى تتغلب عن أوهامها وتواجه حقيقتها في مرآة مجلوة لا تخفى من ملاحظها شيئاً . ثم تبدأ من جديد في تكوين شخصية لها ، عاقلة ، عاملة ، نامية . وتبذل ذلك كله علينا وحدنا .. لن يصنعها أحد سوانا ، فلنصنع لأنفسنا - نحن الشعب - شخصية قوامها القوى الاجتماعية بعد تصحيحها وتنقيتها .

هذا هو الطريق :

وهناك حقيقة جديرة بالتذكر وهي أن الطريق الوحيد لأن تهض .. هو أن توجد ..

وجود الشعب - معناه وجود قواه ، أو بتعبير آخر - وجود قوته الاجتماعية على حالة تمكنها من إمداده بالطاقة والحياة .

لقد تحدثنا عن الحرية ، ولما كانت الحرية تضمن نفسها على الذين لا يستحقونها فقد صار لزاماً علينا أن نبحث عن المقومات التي تجعلنا لها أهلاً ، والتي تجعل لنا قبل ذلك شخصية سوية ناضجة تقاوم المطامع ، وتملأ فراغها في الحياة - وهذه المقومات والعناصر هي - القوى الاجتماعية التي لها من الحتمية والنائدة ما يجعلها جديرة بالعناية والعمل من أجل حيازتها .

ينقل الأستاذ العقاد في كتابه « فلاسفة الحكم » عن الفيلسوف « جايثا نوميكا » هذه العبارة الجليلة :

« إن الخير لا يتحقق في الطبقة الحاكمة إلا بفضل القوى الاجتماعية ، والحصانة الشرعية .. والحصانة الشرعية هي الوازع المستمد من قدرة القوى الاجتماعية على مقاومة مطامع الحاكم الشخصية . »

إذاً فالقوات الاجتماعية هي السيف المعنوي الذي يلاقى الفساد ويتحداه .
وإذا كانت قوانا هذه التي سنتحدث عنها . تبدو اليوم سيفاً متقاصراً فلنعمل
بوصية الأسبرطى الذي قلد ابنه سيفاً ، فهزه الغلام في قبضته ، وقال :
— يا أبى . هذا السيف قصير .

فأجابه أبوه : تقدم به خطوة واحدة . فسيصير طويلاً . . . ! فلنتقدم بقوانا
خطوة ، مؤمنين بأن الظروف كائنة ما كانت لا تستطيع أن تعمل ضدنا على صورة
شاملة ، ودائمة . إلا إذا أردنا نحن ذلك . . . وأن ما بنا من ضعف ليس علاجه
مضاعفة أسبابه ، وإرباء مقوماته ، والضمور للمائل في قواتنا الاجتماعية يتطلب
منا أن ننقل إليها من دمائنا لتنتعش ، لا أن نمتص مابقى فيها من دماء .

لقد سئل رسام شهير : كيف تخرج ألوان لوحاتك زاهية إلى هذا الحد . ؟
فأجاب : إنى أخلطها بدمى . !

فلنخلط قوانا بدمائنا . أى لنؤازرها بكل ما نستطيعه من إخلاص وإنصاف
وإنماء . ولنذكر مرة أخرى . أن حقوقنا ، كشعب . وأن الأمم في نضالها
الموصول ، ومسراها الكادح نحو الحرية تكتسب بالحبرة والتجربة مزية
الاقتناع بنفسها ، واحترام العناصر المكونة لشخصيتها . . فإذا فقدنا هذه المزية
اليوم ، وسخرنا قوانا الاجتماعية لغير صالحنا ، فقد تودع منا .. وليرحمنا الله .

والقوى الاجتماعية كثيرة . . . ولكننا نركز الحديث عن أهمها ،

وأكثرها اتصالاً بقضيتنا ، وفاعلية في حاضرتنا ومستقبلنا — وهي :

(أ) القانون ..

(ب) الصحافة ..

(ج) الأحزاب ..

(د) القيم والمعايير ..

ولتحدث عنها واحدة واحدة .

١ — القانون ..

القصد .. والشمول

أول القوى الاجتماعية التي تتكون منها شخصية الشعب قانونه .

والقانون حين تكون النزاهة والقصد لحيته وسداه — فإنه يصير مثابة الأمة وأمنها ، وعامل رقي وتقدم فيها . أما إذا تجانف لهُوى وعدوان ، فإنه يكون آفة الأمة وكارثتها الملاحقة ، ويحق عليه ذلك المثل الأسباني الطريف :

— أذهب أنت إلى القانون لتشكو إليه سرقة شاتك .. ؟

— حسن .. متعود . وقد سرقت بقرتك أيضاً ؟

القانون لكي تتم نعمته على الناس يجب في نظرنا أن يلتزم أمرين :

القصد ، والشمول

أما القصد ؛ فيقتضينا ألا نسرف في وضع القوانين ؛ لأنها غالباً ما تكون على حساب الحرية ، بل وعلى حساب النظام الذي توضع لحمايته

وإننا نرجو أن يجسد حكامنا جميعاً الشجاعة التي يحفزهم إلى الاعتراف بأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وعلينا في إصدار القوانين ، ولعلمهم قد فاتهم أن قليلاً

من القوانين نطقه - خير من كثير نبرم به ، ونعتقد عليه .. وفاتهم أيضاً أن القانون ليس الوسيلة الوحيدة لتربية الشعوب - بل لعله آخر الوسائل جميعاً .

ولنضرب لذلك مثلاً .

منذ شهرين (١) تقريباً قامت بمصر حركة اضرابات واسعة ، حتى لقد أضرب الأزهر اضراباً جماعياً اشترك فيه شيخ الأزهر وجماعة كبار العلماء .. فرأت الحكومة أن تعالج هذه الحركات بقانون يزجرها ، ويفتح أبواب السجون للمضربين ، والمحرضين .

وفي فبراير الماضي سنة ١٩٥١ - أضرب سبعون ألف عامل في جنوب بلجيكا - كما نشرت الأهرام في عددها الصادر بتاريخ ١٥ / ٢ / ١٩٥١ وطالبوا برفع أجورهم ٥ ٪ ، فلم تستصدر الحكومة قانوناً مماثلاً للقانون الذي أصدرناه - بل أجابت مطالب العمال . . . وفي نفس ذلك الحين ، أوقبله بقليل . أضرب عمال السكك الحديدية بأمريكا .. أضربوا وجيشهم المحارب في كوريا يتدحرج في مجاهلها ، ويقاثل ، ويتلقى الضربات الشداد مما يجعل الاضراب حادثة جريمة وخيانة - فماذا فعل ترومان ؟

تجيينا جريدتنا الأهرام والمصري بتاريخ ٩ / ٢ / ١٩٥١ « إن المضربين حشوا في كلتهم مع الحكومة ، ونقضوا اتفاقية عدم الاضراب . كما لو كانوا حفنة من الروس » . . .

هذه هي النكته المرحه التي استقبل بها « ترومان » الاضراب والمضربين ونقلتها عنه صحافتنا .

وماذا فعل أيضاً .. ؟

عندما ازداد الاضراب اتساعاً وخطراً ، أمر بفصل الذين لا يهودون إلى أعمالهم - ولكنه قبل ذلك أمر برفع أجورهم فوراً.. بل وجعل الزيادة الجديدة تبدأ من عام ١٩٤٨ !

أفلم يكن « ترومان » قادراً على تحريم الاضراب بقانون ؟

نعم : وكذلك كانت بلجيكا قادرة .. ولكن مثل هذا القانون يعتبر تجديداً لكرامة الشعب ، وإهداراً لحرية ، وهو أمر لا يقدر عليه « ترومان » ولو أوتي بسطة في الحكم .. وبسطة في النفوذ .. ! نحن لأنشجع الاضرابات وليس هناك في عالم العقلاء من يشجعها - فهي تشل حركة الأمة ، وتهدر من عمرها وقتاً نفيساً بلا إنتاج ولا عمل .. ولكننا نرفض أيضاً ، أن نعامل معاملة العبيد الذين تشهر دائماً في وجوههم السيوط .. ! وثقوا أن هذا السرف في التقنين يفقد القوانين قيمتها ووقارها ، ويؤلب عليها الناس الذين ينظرون إليها آنشد نظرة فيها مقت وعداوة ونحن حريصون على كرامة القانون وسيادته حين ندعو إلى القصد والاعتدال فيه حتى نتيح للمجتمع فرصة حبه واحترامه - فالأسراف فيها فوق أنه يصورنا أمام العالم أمة تعيث فيها الفوضى والهمجية ، يبذر في النفوس بغض القوانين برمتها ، ويحفز المجتمع إلى التحايل عليها - وإذا تكونت فينا عادة التحايل فقد فقدنا كل أمل في امثال القانون ولو كان عادلاً وفاضلاً ..

أويظن الحاكمون أن القوانين على كل شيء قادرة .. ؟

قلناخذ العبرة من قانون الاضراب الأخير .. لقد توعد بالعقوبة المهرضين فهل اختفى التحريض . ؟

كلا - فقد نشرت جريدة الأهرام بعد صدوره بيومين أو ثلاثة وبخط بارز

مثير «سبعون ألف عامل يضربون» وسأقت أخبار الاضراب البلجيكي بأسلوب فيه إغراء كثير . .

وكتبت كذلك « أخبار اليوم » على أثر صدور القانون بعنوان « الأزهر يواجه مشكلة جديدة » ١ . وصاغت الخبر صياغة محزنة مشعلة دون أن يستطيع القانون معها حسابا - فقالت :

« . . . وسيرتب على ذلك حرمان ١٢٠٠ متخصص من الأمل في الترقى إلى الكليات . . وقد علمنا أن هذا الموضوع سيثير أزمة جديدة في الأزهر » ١

إن هذه الكلمات مثيرة للأزهريين لاشك ومع هذا فقد قيلت على سمع القانون وبصره ثم لم يملك إزاءها شيئا . ولقد كانت صحافة الوفد تلعب نفس اللعبة وهو في المعارضة . فعندما وقف صدقي باشا بمجلس الشيوخ في ١١ مارس سنة ١٩٤٦ يدافع عن تصرفه في إلغاء جريدة « الوفد للمصري » قال : إنها تدعو إلى الثورة ، بطرق ملتوية وتلامنها هذه الفقرة :

« إن البلاد في ثورة ، والثورة لن تخمد مادام في الشعب المصري دم يجري ، أو عرق ينبض . . - تنتهي اليوم المهلة التي طلبها صدقي باشا من وفد الطلبة حين قابلوهم وطلبوا منه مطالبهم القومية . . ترى ما الذي أعده صدقي باشا وقد أجابه الطلبة إلى رغبته . . لقد انتهت المدة . . فماذا فعل . ١ ؟ »

إن القانون في بلاد الأحرار خادم عاقل . وفي بلاد العبيد سيد مستبد . وليس يكفي أن نزع أننا أحرار ، فالحرية سماتها وعلاماتها ولقد قال حكيم : « أروني قوانين أمة من الأمم ، وأنا أدلكم على نصيبها من العظمة ، أو الانحطاط . . »

وهذا حق ، حق جداً . . لأن الدولة التي تصاب بأسهال تشريعي تكون

دولة غير طبيعية ، ودولة عاجزة ، وهي لا تلبث حتى تستمرىء هذه العادة الرديئة ، فتصنع كما صنع الحاكم بأمر الله حين وضع القانون في خدمة «الملوخية» يبيحها أول النهار ، ويحرمها آخره .. ا

وكثيراً ما تجيء هذه القوانين مخالفة للدستور ، في نصه وروحه . وكثيراً ما تكون مرانة لا ترد يد لامس ، فتفسرها السلطة التنفيذية تفسيرات مردية . . قال مثل هذا القول نواب محترمون في جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ - وكانت الحكومة تعرض مشروعا جديداً تعدل به نصوص القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٤٧ ، الخاصة بمعاينة من يجرد أو يروج المذاهب التي ترمى إلى تغيير مبادئ الدستور الأساسية ، أو النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالعنف ، أو الإرهاب أو بآية وسيلة أخرى غير مشروعة - وأرادت الحكومة يومئذ أن تفسح دائرة هذه المادة بإضافة المواد - ٤٨ ، ب ، ج ، د ، هـ ، التي أضيفت فعلاً . .

فوقف بعض النواب صارخين . محذرين من عواقب هذا الإفراط - ولا من يسمع أو يعتبر . ا ومع هذه الإضافات الزاجرة وجدنا النشاط الذي وضعت تلك المواد لمطاردته ينمو وينتشر .. فماذا صنع القانون المسرف على نفسه وعلى الناس ا

والآن لنستمع إلى كلمات هؤلاء النواب المحترمين (١)

حضرة النائب المحترم الأستاذ حنفي الشريف قال :

« إنه يعارض مبدأ هذا التشريع لأنه لو كان في مصر حزب شيوعي يعمل علناً . لكان في وسع الحكومة أن تحكم الرقابة على أعضائه ، وأعماله ، وصحفه .. ثم قال :

(١) مضابط مجلس النواب جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ .

إن قيام هذه القوانين قد أدى إلى قيام الخلايا السرية التي تعمل الحكومة
جاهدة للقضاء عليها - وقال :

« إنه يطالب الحكومة بأن تدع حزبا شيوعيا ينشأ في مصر ، فإن ذلك
أيسح في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا .. وإن هذه المذاهب تدرس في الجامعة ،
ويمتحن فيها الطلبة ، وقد يكون من بينهم من اقتنع بها واعتنقها ، وأن محاربة هذه
المذاهب تجعل الجمهور يظن أنها صالحة لكن الحرية لو تركت تنظم نفسها .. »

وقال النائب المحترم طي راتب :

« أنه يوافق الحكومة كل الموافقة في أن تفرض ما تشاء من عقوبات على
من يحاولون بالقوة أو الإرهاب تغيير أصول الحكم .. لكنه لا يوافقها مطلقا
على الحد من حرية الذي يفكر ، أو يكتب .. »

وقال النائب المحترم فكري أباطة :

« إن التشريع المعروض يخالف الدستور ، والمواثيق الدولية التي ارتبطت
مصر بها - وأنه يتعارض مع أحكام المواد السابعة والرابعة عشرة والعشرين ،
والسادسة والخمسين بعد المائة من الدستور . »

ومضى يتساءل : ماذا يعنى المشروع المعروض بمحاولة سيطرة طبقة على
أخرى ، وما هذه الطبقة . ؟

أهي الارستقراطية . ؟ أم الوسطى ، أم الشعبية ؟ ! »

ولكى أدلل على مرونة القانون وتميحه ، وهي مرونة ضد المتهم غالباً خاصة
فيما يتعلق بالحرية ، أذكر تجربة شخصية لي .

فقد اتهمت في كتاب - من هنا نبدأ - بتهمة عدة .

وكان منها الدعوة للانتفاض على الدستور ، وتغيير المبادئ الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وكان تكييف الاتهام في التحقيق على هذا النحو ..

إننى ، وإن لم أكن قد دعوت إلى استعمال القوة .. إلا أننى روجت لمذهب قام فى بلاد أخرى بالقوة ..

يا سبحان الله . ا إذن ، فالترويج للإسلام جريمة لأنه قام فى بلاد كثيرة بالقوة ..

والترويج للاستقلال جريمة لأنه لا ينال إلا بالقوة .

والترويج للحرية جريمة لأنها انتصرت فى بلاد أخرى بالقوة .

وهكذا تطلق الحكومات ، القوانين فى أعقاب المواطنين لتنال منهم شر منال ، وكل جائع يقول اليوم : يا كبدى . ا شيوعى ، وكل كاتب مخلص شيوعى . وكل ذى شكايه ، ومظلوم .. شيوعى وحكام اليوم ، كانوا شيوعيين فى نظر حكام الأمس . وحكام الأمس : شيوعيون فى نظر حكام اليوم ، وكلا الفريقين ، شيوعى فى نظر حكام الغد :

والجانب المضحك فى هذه للأساسة يجعلنا أقرب الناس شياً بجها . . . لقد أراد أن يتخلص من مضايقة بعض الغلمان له ، فدلم على عرس موهوم ثم عاد المسكين ، فصدق نفسه ، وانطلق يعدو وراء الغلمان نحو أ كذوبته التى صدقها ا وإنما أيضاً ، نضع القوانين أحياناً لنلتصم بها للأبرياء التهم والعيوب ، ثم نعود فنصدق أنهم حقاً متهمون ، ا ا

والجانب المزعج فيها - أن كل حكومة تلى الحكم تشرع القوانين التى تعميها ، وتطبقها ، كأنها من الخالدين : ا وتعتمد أن تجعل لكل قانون باباً كبيراً يتسع لمدخل كل من تستضيفه حيث يفضى إلى دهاليز من وراءها السجون والظلمات . ا

ومثل ذلك ، وما أكثر الأمثال - ما نجد في مؤخره المادة ١٩٨ ، ب ، ج ، د ، هـ - وهو ١٠

» .. متى كان استعمال القوة أو الإرهاب أو أية وسيلة أخرى غير مشرعة ملحوظاً في ذلك .. «

أما القوة والأرهاب ، فحسن هذا ، ولكن ما مدلول عبارة «أو أية وسيلة أخرى غير مشروعة» ؟

وإن كل وسيلة مشروعة تستطيع الحكومة . والبوليس معها أن يلبسها لباس اللامشروعية والجريئة . ثم يقدمها للقضاء بهذا الوصف الزنيم وكما تزداد المسألة وضوحاً نستشهد أيضاً بالمادة (١٧٦) عقوبات .

وهي : « يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة ، وبغرامة لا تقل عن عشرين جنياً ، ولا تزيد عن مائة جنية - أو بإحدى هاتين العقوبتين ، كل من حرض على بغض طائفة أو طوائف من الناس ، أو على الازدراء بها .. إلخ » .
إن الغموض الشائع في عبارة « بغض طائفة ، أو طوائف من الناس » غموض مقصود ، وهذه العبارة على ضآلتها بثر لاقاع له يستطيع أن يبتلع في لانهايته الشعب كله ثم ينادى في شعار وجشع : هل من مزيد ؟

بغض طائفة من الناس .. ؟ أي طائفة تمنحونها هذه الحماية . ؟
هبوا اللصوص ألقوا لأنفسهم تقابة ، ودعونا مثلاً دعا الله إلى بغضهم أنكون آثمين ؟

سيقولون : لا .. ومن يدري - ربما تكون نعم . ا
وهبونا ازدرينا روح الجشع السائب المتبدى في تصرفات آلهة الإقطاع الذين لا يسهمون مع الحكومة ولا مع الشعب في تحقيق آماله - أنكون آثمين ؟
- سيقولون : نعم . ا

لقد حدث هذا فعلاً ، وأنى لأعرف كاتباً - لعله أنا - أرادت النيابة أن تقتل
له من هذه المادة قيداً غليظاً ، ووجهت إليه تهمة التحريض على بغض طائفة
من الناس ثم تبين أن هذه الطائفة هم الإقطاعيون . ١

أى فارق بين رجل يسرق حذاء ، وآخر يسرق تفتيشاً ؟

أى فارق بين رجل يقتل فرداً ، ورجل يقتل شعباً ؟

بل أستغفر الله .. فإن الفارق عظيم جد عظيم .

إننا نريد أن نحب قوانيننا ، ونحترمها . لأنها تمثل العقدة الحيوية في شخصية
الشعب ، والطريق لهذا أن تكون مقصدة واضحة تشرف الحكومة التي تضمها ،
والشعب الذي يلتزمها .

واسمعوا ما يقوله « توماس بين » .

« عندما تستطيع دولة أن تقول إن ققرائى سعداء لا يشكون عسراً ..

« وسجوني تصطفق أبوابها لا تجدد من تؤويه ..

« وقوانيني رفيقة لا تكلف المواطنين حرجاً ..

« عندئذ فقط تستطيع أن تفاخر بدستورها وحكومتها .. »

الشمول بعد القصد :

وإذا اتينا من الحديث عن وجوب الاعتدال والقصد في قوانيننا - فمضى متحدثين
عن وجوب شمولها وبسط نفوذها . لقد وفد على عمر بن عبد العزيز وفد بعض
البلاد ، فسألهم : - كيف تركتم الناس .. ؟ قالوا تركنا فقيرهم موفورا ، وعائيتهم
مقهورا ، ومظلومهم منصوراً .. فقال : الحمد لله لو لم تتم واحدة من هذه إلا بعضو
من أعضائي لكان عندي مرصفاً .. ؟

بهذا الروح الكبير حمى ابن عبد العزيز سلطة القانون من أصحاب النفوذ
والؤهلات الخاصة .. ورعى الذئب في عهده مع الغنم دون أن يمسه منه جيف
أو عدوان . .

وحمل عمر بن الخطاب عصاه في يده ورفعها إلى أعلى . ثم صلى الله تعالى
وهوى بها على ظهر ابنه وولده وقال : أفى كل يوم تأكل اللحم ، والناس جياع ؟
كل كما يأكل أبوك . يوما خبزاً وزيتاً .. ويوما .. خبز وملحاً .. ويوما خبزاً
وماء . . .

ووقف أبو بكر يوم ولي أمر الناس ، ووقف التاريخ تجاهه يتلقى من بين
شفتيه القسطاس المستقيم :

« القوي فيكم ضعيف حق أخذ الحق منه - والضعيف فيكم قوي حق أخذ
الحق له »

فيا أيها الذين تلوذون بالإسلام . .

ويا أيها الذين تحتمون به عندما تتحمل الشعوب الخاضعة . .

ويا أيها الذين تتظاهرون بالخوف عليه من أولى الناس به .

هذا هو الإسلام ، وهذا هو احترام رجاله للقانون ، ولقد استمعنا من قبل
إلى الملك وهو يلقي على وزيره خطابه التقليدي . أيام المصريين القدماء فيقول له :

« إذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى
القانون مجراه في كل شيء .. واعلم أن المحاباة بغیضة إلى الإله : وانظر إلى
القريين للملك ، نظرتك إلى البعيدين عن بيته .. » - إن سيادة القانون ضرورية
لسيادة الأمة - والويل للمجتمع ينكمش قانونه أمام سادته وكباريه . عندئذ تشيع في
شخصيته الفوضى والاضمحلال والاستهتار : وإنا نمر فيما نقرأ عن الدول الأخرى
بمشاهد تبهر الأبصار .

حدث يوما — وهذه قصة ترويحها أخبار اليوم بتاريخ ٥ / ٧ / ١٩٤٧ —
 أن تزوجت بنت ستالين ، ورجت أباهـا أن يهيء لها سكنا تستأجره فرفض حتى
 يحين دورها — كبت أى كناس يكنس الشارع ويحمل القمام .. !
 وعلم بعض الوزراء فجمعوا المجلس سرا ، وقرروا تسليم بنت المارشال ستالين
 شقة ذات غرف ثلاث . ا

وحدث أيضا — أن عاد ابنه الأصغر من ميدان القتال مزهواً بالنصر فانطلق
 بين حانات موسكو ومراقصها مفتونا بشبابه وحسبه ، فأصدر « بريا » وزير
 الداخلية أمره بأقصائه فوراً إلى قرية نائية لمدة عام كامل ..
 وسمع « بريا » أن الفق ساخط على هذا القرار ، فاستدعاه وقال له : — لقد
 أصدرت أمرى هذا رحمة بك قبل أن يتدخل أبوك فى أمرك .. وأنت تعلم جيداً أى
 لو أحلت الأمر إلى أيبك ما كان جزاؤك أقل من النفي خمس سنوات كاملة ..
 ويوم أحب ملك الإنجليز .. « مسز سمبسون »

أى ذنب جناه حين أحب .. ؟
 لكن لبلاده تقاليد أقدم فى قلوبهم من القانون ..
 ألم يكن الملك بقادر على أن يحطمها .. ؟
 لا — إنه لا يستطيع .. لأنه يحترمها .. ولقد انحنى لها .. وترك عرشا يطل من
 فوقه على دنيا سعيدة مديدة .. وحمل عصاه على عاتقه ، ومضى يشحن فى أرض
 مجهولة ، رضى النفس مقتنع الضمير .
 لقد احترم فى اللحظة المفزية الحازمة أمته واحترم تبعات الملك وشعائر البلاد
 وماذا أقول .. ؟

إن التاريخ منعم بالامثال يضربها للناس ، ولكن أكثرهم لا يعقلون .
 دعوا القانون يسد ويسيطر .. فإذا سرق الفقير رغيفاً وأدخل السجن وسرق
 الكبير دولة ، فليدخل السجن أيضاً .

أما أن ننحني أمام إثمته وسرقاته ثم ننشد :

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء ، فقف على حد الأدب

فهذا هو - سوء الأدب .

لقد علم عمر بن الخطاب أن عمرو بن العاص داهية العرب ومن وجهاء قريش وكبرائها قد فشت له فاشية من الأبل والمال : فأرسل وراءه من يحاسبه الحساب العسير ويقاسمه جميع ثروته - حتى إذا انتهى منها جميعاً قال :

— أين نعلك يا عمرو .. ؟

فاجاب عمرو مبهوراً — لم . ؟ فقال محمد بن مسلمة رسول عمر : — لنا واحدة ، ولك واحدة . !

لم يقف جاء عمرو ، ولا دهاؤه ولا قوته دون القانون وهو في طريقه إليه بل بلغ منه المبلغ الذي يريد .

إن من الخير أن نعترف في شجاعة بمحنة القانون في بلادنا ولكن الحق أن الحكومات ليست وحدها سبب هذه المحنة - بل نحن معها . . ونحن قبلها .

ففي سلم السلطة التنفيذية من أدنى ، يوجد كثيرون من الموظفين الذين لا يحترمون أقل احترام ، التزاماتهم إزاء الدولة والقانون والشعب ، وهم يعرفون أنفسهم كما يعرفون خطاياهم .

أولئك الذين يعطلون تنفيذ الأحكام من أجل رشوة حرام ، وأولئك الذين يضللون القانون عن جناية وجانيها من أجل دراهم معدودت .

وأولئك الذين يحرفون القانون عن مواضعه تحقيقا لغرض . . أو استجابة
لشهوة . .

فلنؤد واجباتنا نحو القانون في ذمة وشرف وليبذل الحاكمون من ذوات أنفسهم
مزيد احترام للقوانين ، فيعمموا تطبيقها ، ويعلنوا سيادتها : . ومزيداً من الفهم
لحكمة مشروعاتها ، فلا يسرفوا فيها .
وليجنوها من سكان القصور ، وأبناء الأكرمين .

ب — الصحافة ..

« .. وعندما أغلقت بابي وراء رئيس الوزراء ، دق جرس اللورد » يفر
بروك « صاحب جريدة الديلي اكسبريس ، وقبل أن أروى له مادار بيني وبين
المستر بلدوين قال لي :

— لقد ضاع الأمل الأخير في المحافظة على هدوء صحف لندن لقد قرر رؤساء
تحرير الصحف أن ينشرو تفاصيل الأزمة التي بينك وبين الحكومة ووضعت
الساعة ، وشعرت بأن الدنيا بدأت تظلم في وجهي . ولما نظرت إلى ناحية
مطابع « فليت ستريت » شعرت كأن سحبا سوداء تخرج من هذه المطابع ،
وتتجه إلى قصرى . لقد كان يوما سيئا . . !

« وقد كنت أتوقع أن يتحدث الصحف عن الأزمة في صراحة مؤلمة ولكني
لما قرأتها في صباح اليوم التالي شعرت بذهول ثم باشمزاز .

« هل يمكن أن يكون هذا الذي يتحدثون عنه هو الملك . . أو أنه
— هلفوت — عادى .. ؟

« حقاً إن الصحافة تستطيع أن تخلق ، وتستطيع أن تهدم . . » ١

ليس هناك أروع من هذه الكلمات لنبداً بها حديثنا عن الصحافة - والصحافة هي أعصاب الوعي في أمتها، وهي من أهم إن لم تكن أهم عناصر الشخصية الشعبية وأن لها حقوقاً ، وعليها واجبات .

فأول حقوقها — الحرية الكاملة .

١ — حرية الأنباء . وتشمل حرية التلقى ، وحرية الأداء .

(ب) حرية الرأي والنقد والمعارضة .

وحيث نفاضل بين عهد وعهد نجد أقومها طريقة هو الذي يهبط فيه منسوب الاضطهاد . وليس الذي يبرأ كاملاً من هذه الآفة الخبيثة .

وفي يوم ١٧/٩/١٩٥٠ — نشرت جريدة المصري حديثاً. (لعالى) وزير الداخلية وازن فيه بين ماذا . . ؟

بين عدد مرات المصادرة في عهده، وعددها في غير عهده من العهود — فقال:

« بلغ عدد القضايا الصحفية في سنة ١٩٤٦ — ٢١٣ قضية »

وبلغت عدد الكفالات المدفوعة من الصحفيين المتهمين — ٢٧٦٥ جنياً .

« وحدث أن جريدة واحدة هي البلاغ، تعرضت خلال أربعة أشهر لأربعة عشر تحقيقاً . وحبس عشرة من الصحفيين دفعة واحدة فيما نشره المصري بشأن الاقتراح الكولبي . . »

« وفي عام ١٩٤٥ ، أثناء الأحكام العرفية — بلغ عدد القضايا الصحفية في ثلاثة أشهر فقط هي أكتوبر ، ونوفمبر ، وديسمبر — ٣٧ قضية صحفية وجملة الكفالات ٤٠٠ جنياً ، على الرغم من وجود الرقباء الذين كانوا يحدفون كثيراً كما يشاءون » ثم ذكر معاليه — عدد القضايا الصحفية في سبعة أشهر من عهده وهي المدة الواقعة بين أول يناير سنة ١٩٥٠ ، وآخر يوليو سنة ١٩٥٠ وكانت (٣٢) قضية . . .

لا جرم أن الأرقام التي ساقها (معاليه) خاصة بالسنوات الماضية أرقام بشعة مزلة . ولكن مادلالة هذه الموازنة في معناها العميق . . ؟

دلتها أن مضايقة الصحافة ، وإبسالها ، ومصادرة حريتها قائمة في هذا العهد وفي غيره من عهود . وأن الفارق بين عهد وآخر — مائل فقط في الكم والعدد . . ونحن نعلم أن العدد في هذا الأمر ، مسألة زمن . . :

فإذا كان محصول الحكومة القائمة في سبعة أشهر (٣٢) قضية ، فكم يكون المحصول في خمسة أعوام . ؟

لقد ذكر معاليه أن مجموع الكفالات التي دفعتها الصحف المضطهدة عام ١٩٤٧ ، هو (٢٢٠٠) جنياً .

فما قوله — دام فضله — في أن داراً واحدة من دور الصحف هي « دار أخبار اليوم » قد بلغ مادفعته وحدها من كفالات — ١٢٥٠ جنياً في أسابيع معدودة . . ؟ !

إننا بهذا النقاش لا نهدف إلى إحراج وزير ، أو التشهير بحكومة معينة ، فنحن من بداءة رحلتنا في هذا الكتاب نلقى اللوم دائماً على روح الحكم

وسلاته وطرأته . ، أما الأشخاص فلا . . . لأهم زائلون . أين تقدير حكوماتنا
للصحافة من تقدير ذلك الملك العظيم السابق الذي شعر كأن سجباً سوداء تخرج
من مطابع الصحافة وتتجه نحو قصره . . . ؟

ثم أين احترام صحافتنا لواجبها ، ولقارئها . . . ؟

إن للصحافة في توجيه الرأي العام أثرها البليغ . فهي قادرة على هدايته وعلى
إضلاله . . . وبقدر ما تقدم له من عون ، تقدم لنفسها أيضاً — فكلها للآخر
قوة ومساك . . .

ولعل صحافتنا تجد من الشجاعة ما تصفى به لهذه الحقيقة وهي — أن
الأخلاق التجارية تسيطر عليها أكثر مما يسيطر الواجب الأدبي . . . وقد يكون
عذرنا حاجتها المطردة إلى الربح والمال . بيد أن ذلك مستطاع ميسور مع الاحتفاظ
بالمعنويات الفاضلة التي تجعل منها في بلادها قوة هادية . . .

إن الروح التجارية هو الذي يدفع الصحافة أحياناً إلى الإسراف الشديد في
الولاء ، لتظهر بقلب الحكومة وجيها .

وهو الذي يدفعها حيناً آخر إلى التطرف في الشنآن ، لتظهر بعواطف الجماهير
التي تسارع بحكم طبيعتها إلى البغض أكثر مما تسارع إلى الحب . . .

وأمامي الآن ركام هائل من الصحف الملوثة بالمتناقضات وسأم يدي ،
وأتناول عفو الصدفة صحيفة منها . . . ثم نقرأ فيها معاً . . . ونبحث بعد ذلك
عن عدد آخر من نفس الصحيفة يكون قد صدر في عهد آخر — ولننظر . . .

« . . . وإذا كان المنادون بالحریات — يريدون أن تنصرف الحكومة عن
واجبها في صيانة النظام ، ليعبثوا به ، ويسخروا بعض « الصعاليك والفتونين »

لتنفيذ أغراضهم الخبيثة ، وجعل مصر مدينة مفتوحة للشيوعية والفوضى ..
فليحثوا لهم عن « لعبة » أخرى قبل أن ينفذ السرك وينصرف عنهم
المتفرجون .

أقرأتم هذه السطور ..

اقرأوا مرة أخرى كلاما آخر قالته بعد ذلك بعام واحد من عمرها المديد .
» .. افتحوا أبواب السجون التي ملئت بشبابنا المثقف متهم بالشيوعية
والله يعلم أنه ليس في مصر شيوعيون سوى أولئك الذين يقضون حياتهم
بين سهرات الشتاء الحمراء بمصر وسهرات الصيف الحمراء بباريس .

إن الحرية هي .. هي — لم تتغير .

وحركة اضطهادها تسير على الدرب المرسوم .. فما سر التناقض فيما كتبه
الصحيفة . وفيما تكتبه زميلاتها الكريئات ؟

إن الاتجاه النفسي تغير فتغير معه كل شيء .. ، والجاهل القارئة هي التي تدفع
عن هذا العبث من أعصابها وسكينتها ، ونهاها ..

إننا بالأشواق إلى ذلك اليوم الذي نسمع فيه عن صحفي مصري — طرق
أحد الكبراء بابه .. . وقدم له « شيكا » بمائة ألف جنيه مساوما به على مصالح
الشعب .. . فيصنع كما صنع الصحفي الانجليزي .. . ويدعو حاجبه لاصطحاب
الكبير المحترم إلى الباب — لأنه يجهل الطريق .

إن الصحافة هي الرئة التي تتنفس بها الشعوب ، وتصوروا لو أن رجلا ذا
جاه ونفوذ ومال — استأجر رثي أنا — ليتنفس لحسابه ، لالحسابي ، كم لحظة
من العمر أستطيع بعدها أن أعيش .. .

لقد كان « أمرسون » صادقا حين قال : الصحافة الحرة رسول من قبل الله
للشعب . نعم — إنها كذلك ..

فهى التى تكشف عن بصره الغشاوة ، فىرى ، وتزيج عن آذانه الوقر .
فيسمع ، وتمزق عن وعيه الحجب . فيدرك كل شيء ويحييه .. إنها القوة التى
تحيا بها الأمة .. وتموت أيضاً ..

ونحن ندعوها إلى العمل وفق تبعات هذه المسكاة السامية التى بواتها
الحضارة إياه .

ج — الأحزاب ..

التعدد .. لا الوحدةانية ..

عندما يغم الطريق أمام أمة من الأمم ، وتتغشاها غواشى المسكنة والدل —
وتكون قد عاشت أمدا طويلا فى قبضة الجبارين ، فأنها تحن دائما ، وتنزع إلى
شيء غير قليل من التخفض والتخشع .. والارتواء فى أحضان سيد .. ليس له
صنو ولا شريك .

وهذه هى العقبة الكأداء التى تعانيتها الديمقراطية وهى فى طريقها إلى ضئ
هذا الطراز من الجماعات . إن هذا الضمير لا يزال يبحث عن جبار جديد بعد أن
اصطنع له اسما آخر يهواه ويطيعه — كأن يسميه مثلا — الحزب الواحد ..
المستبد العادل .. الشورى غير الملزمة .. ولعل الشرق كله لا يزال يردد فى
إيمان ونشوة الكلمة المعزوة إلى السيد جمال الدين الأفغانى : « لن يصلح
الشرق إلا مستبد عادل » .. ١١

وقد يكون « جمال الدين » قائل هذه العبارة — وقد تكون من صنع أحد المعجبين به ، وبالمستبد العادل .

أصبح هذا . أي يمكن أن يكون الحاكم مستبداً وعادلاً معاً . ؟

كنا نقرأ في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ، وهي غير صحيحة .

— « أن لله ملكاً نصفه من ثلج ، ونصفه من نار ، فلا الثلج يطفى النار ،

ولا النار تذيب الثلج . ١ »

إذا كان في الإمكان وجود مستبد عادل ، فهو هذا . ١

نريد أن نقول للجماهيرنا التأهبة — هذا هراء . ١

والرجل الواحد . والحزب الواحد — استبداد وإفك ودمار .

لقد آمنت قبلاً بالرجل الواحد وبالحزب الواحد . أيام كنت أؤدى للآخرين تحية العوام . كما يقول « أسكار وايلد » — « التقليد تحية العوام لأصحاب العبقرية » . أدت هذه التحية يوماً لأناس طيبين يسوا على أى حال متهمين بالعبقرية ؛ فلما بدأت أفكر لنفسي وعيت شيئاً جديداً .

وأستطيع الآن أن أتصور — وتستطيع أنت أن تتخيل معى ساعة جلسنا إثر صلاة الفجر نستمع لموعظة — وكنت يومئذ أومن بالرجل الواحد في جماعة دينية . جلس الشيخ يعظ — فقال :

من قال لشيخه لم . ؟ فقد حرم بركته .

قلت للشيخ يوماً . إن أصحاب الرسول كانوا يقولون : لم — ولماذا . ؟

فأجاب : عندما تكون كأصحاب الرسول . قل مثلهم — لم . ؟

أجبتة أيضا - وإلى أن تبلغوا أتم منزله الرسول ، سنظل نقول لكم : لم . ؟
 وأشهد ، وأنا الآن أشرف على الحوادث من مكان بعيد لا تأثر فيه بشهوة
 ولا غرض أن هذه صورة صادقة لكل رئيس جماعة ، أو حزب في مصر . ا
 كلهم يؤمنون بأنفسهم ولا يزيدون .

ولو كان الصواب والسداد يقفان بجانب الرجل الواحد ا لكانا إذن من التفاهة
 والضالة بحيث يكفي لتحصيلها عقل واحد ، قد يكون مريضا أو موتورا .
 إن الدين يرفض حكم الرجل الواحد : والدنيا له أكثر رفضا .

والحزب الواحد ، كالحاكم الواحد كلاهما شر ، واستبداد .
 وفي مصر خلق كثيرون يصرخون كلماتكادتهم الأمور . ألغوا هذه الأحزاب .
 وهذا وهم عريض . ا فالحقيقة أن ضعف الأحزاب ، لا تعددها هو مآتي البلاء ،

فاذا قيل . إن تعددها علة ضعفها وفسادها لما يحدثه من فرقة وخلاف ، نجيب
 بأن التعدد في أحزاب دول كثيرة هو سبب قوتها وتفوقها ، وإذن فهو ليس مضعفا
 بذاته وطبيعته . وعوامل الضعف والانحطاط آتية من أشياء أخرى سواء . بيد
 أننا نسيطر السيكولوجي الذي أسلفناه ، وهو حين الأمة التي طال انحناؤها
 للسيد الواحد ، والحزب الواحد . ا

لقد عصف الحزب الواحد بألمانيا ، وقسم ظهر إيطاليا ، وترك اليابان عبرة
 وأحاديث ولوت طبائع الأشياء زمام الاستبداد في تركيا فتعددت فيها الأحزاب ،
 ومضى الحزب الواحد الذي كان حاكما بوزر سيئاته ، بل وحسناته ا

ولا تضربوا لنا الأمثال . يروسي ، فالعبرة بنهاية المطاف .
 لطلما لهجنا ببركات الحزب الواحد المستبد في ألمانيا النازية ، وإيطاليا الفاشية .
 فأين ذهبنا . ؟

وروسيا بين أمرين .

فأما أن تكون الحريات فيها سائمة مترعة . ومجالس الاتحاد فيها من القوة والنضج بحيث تؤدي دور الأحزاب المعارضة تمام الأداء . وعندئذ لا يحتج بها علينا مع احتفاظنا بحقنا في استبعاد بلوغ « السوفييت » هذا المنسوب الذي يرشحها للنهوض برسالات الأحزاب .

وأما أن يكون حزبها الواحد مصمتا صخريا . لأشياء معه ، ولا معقب لحكمه . وعندئذ ، فالمصير المدخر للحزب الواحد ، وللشعب — إذا لم يتدارك أمره — في الانتظار .

يجب أن نعلم أن مصر لا يؤودها اختلاف أحزابها . بل تناحر هذه الأحزاب ، أما الخلافات فلا مفر منها ، وهي باقية في الناس ما بقي لكل منهم عقله الخاص ، ومشاعره الخاصة . والخلاف الذي لا يجاوز الحدود ، ولا يتعداها ينفع ولا يضر . لأنه الوسيلة الناجعة لتقليب وجوه الرأي ، وكشف اللثام عن حقائق الأشياء ، والذي يرهقنا بطناوته — الخصومة للخلاف .

منذ أربعة أعوام نشرت صحفنا أنباء إحدى جلسات مجلس العموم البريطاني حيث وقف تشرشل يتهم بيفن بالمعجز وبالعمل لتصفية الامبراطورية البريطانية ، فما كان جواب « بيفن » — ولعلها أقسى كلمات يستطيع أن يستعملها : إلا أن قال : — « ليس في بريطانيا من ينكر أن تشرشل عبقرى الحرب الذي كسب لبلادنا النصر ، ولكنه — وهذا عيبه — يستجيب أحيانا لنداء أغراضه الخاصة » .

وصحيح أن هناك من الساسة والزعماء من يتهاترون ، والعراك التاريخي الذي استعر بين دزرائيلي وجلادستون لا يزال كأنه مشبوب الأوار . . ولكن الأرض المشتركة بين الأحزاب جميعا مهما تختلف وهي — مصالح البلاد —

لا يمكن أن يفرط فيها حزب ، أو يساوم عليها من أجل الكيد والأغاظة
لخصومه السياسيين .

وليس معنى هذه المقارنة أننا نتهم زعماءنا بالخيانة لا - وإنما تهمهم بالضعف
حين يتحابون .. والضعف حين يتخاصمون ..

ألم تسمع يوما أن حكومة العمال اتدبت تشرشل لبعض المهمات السياسية
الخطيرة خارج البلاد . ؟ إن هذا لا يمكن أن يحدث في بلادنا أبداً ؛ فالحزب
الذي يستأثر بالحكم يستأثر معه بكل شيء . ويرفض الأفادة بما في الأحزاب
الأخرى من مواهب ، بل هو لا يعترف بموهبة ولا ذكاء في غير حزبه . . إن
حزبه وحده هو المتختم بعشرات من أمثال بونايرت . . وعشرات من طراز
عمرو بن العاص

إن الحزبية الرشيدة المتعددة من أهم القومات لشخصية الشعوب الحرة ،
فلنغيب بتعدد الأحزاب غندنا ، ولا نجزع . ، ولنطالبها بأصلاح ذات نفسها .
وثفت روح النظام ، والديموقراطية ، والشرف في كيانها .

وهذه مقترحاتنا : —

١ — الرئاسة للأصلح : إن رئيس حزب ما هو رئيس الحكومة يوم يظهر
حزبه بالأغلبية — لذلك نجد رئاسة الحزب ليست من مسائله الخاصة التي يحق له
الاستئثار بها . . بل هي قبل ذلك من حق الشعب الذي قد يحكمه هذا الرئيس
يوما ما ، ولهذا يجب أن يختار الرئيس عن وعي وبصر : وأن يكون الرجل الذي
تتمثل فيه قوة الحزب وقمة نضوجه ، وأن يجدد اختياره . . أما الرئاسة مدى
الحياة فهي ترادف الفساد مدى الحياة ..

٢ — إفساح الطريق للأكفاء : والأحزاب في الأمم الراقية . مدارس تربي

الشباب ، وتعدده لأدوار البطولة ، وقيادة السفين ، ولكنها عندنا « بورصات » للمضاربة والاقتناص .

وإنه شيء محزن ومخجل أن يكون النفاق جواز المرور والوصول في جميع أحزابنا - فأنت كلما كنت بعيداً من الفطنة تكون قريباً من الزعيم . . . وسبب ذلك فيما نعتقد ضعف الزعماء وهزالهم . . فرئيس الحزب إذا كان قزماً أبعد عن نفسه العماقة حتى لا تكشف عورته . . وتنفض قناعته . .

وهؤلاء الصغار الذين يشبعون غرور رئيسهم بالزلف والملق ، هم الذين توصل إليهم فيما بعد مناصبنا الكبرى والوسطى ، فإذا أرادت الأحزاب أن تكون عامل بناء في بلادها ، فلتنفسح الطريق للأكفاء والصالحين فيها - وإلا انقلبت ثورة تورث للأمة الميكروب والآفات .

٣ - المنهج . . المنهج هو الحزب - وأحزابنا هذه بما مناهجها ؟ أنها تهتف بالجلاء ، وبالسودان ، وبالعدل الاجتماعي : فإذا أتيح لأحدها الحكم - توصل لكل هذه الأهداف بسياسة مرتجلة ، وسلوك مضطرب مما يدل على أنه كان فقط يهتف مع الهاتفين ويصرخ مع الصارخين دون أن تكون له فلسفته الخاصة ونهجه المستقل خيال مشا كل البلاد جميعاً . .

إن فائدة المنهج للحزب لا تتمثل فقط في أنه سيكون دستوراً يوم يحكم - بل أهم من هذا أنه يربط الحزب بالشعب رباطاً وثيقاً . لأن المنهج نفسه يكون ثمرة اتصال الحزب بال جماهير وتحسسه آلامها ، وبحثه أخص شؤونها .

إن الارتجال أفسد علينا حياتنا . . الارتجال في الحكم ، والارتجال في المعارضة . . والمضحك أن أحزابنا يقلد بعضها بعضاً حتى في الفشل . . وهذا هو سر ما تجده من تشابه بين سلوكها جميعاً .

إن أرقى مظهر لسياسة الحزب هو خطاب العرش الذى يعبر به الحزب الحاكم عن نفسه ونهجه ونواياه ..

ولقد سرت عبر خطاب عرش كثيرة فى مضابط البرلمان ، تكاد الفروق الدقيقة تنعدم بينها .. وقطع على ميرى ، صوت شيخ جليل ، وجدته قائماً فى إحدى جلسات مجلس الشيوخ يوم ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ، يفسر نفس الظاهرة ويتندر بها .. فلنضع له من واقع المضبطة .

» — حضرة الشيخ المحترم محمد بك خطاب :

» حضرات الشيوخ المحترمين — خطاب العرش أساس من الأسس الهامة فى الحياة الدستورية ، ولو اتبعت الحكمة المقصودة منه . لكان بناؤنا الدستورى الديمقراطى أقوى مما هو الآن بكثير :

» وأما الآن جميع خطابات العرش منذ سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٤٥ أظن أن عدد هذه الخطابات يبلغ حوالى الثلاثة والعشرين خطاباً .. وإذا قرأتم هذه الخطابات تجدونها جميعاً كأنها نسخة واحدة من خطاب واحد مع بعض التعديل فى الألفاظ لا فى الموضوع ، بعكس الحال فى بريطانيا إذ يمكن لأى عضو من حضراتكم أن يقرأ الخطاب فيقول : هذا خطاب حكومة العمال ، أو حكومة المحافظين ، أو حكومة الأحرار .

» إذا كانت هذه الخطابات لا تتغير فى عهد من العهود . ولا فى حكومة من الحكومات ، فما الداعى إذن لهذه الفرقة بيننا ، وهذا الخصام المتواصل ؟ ١٩ .

» الواقع يا حضرات الشيوخ المحترمين أن خطاب العرش بدأ أولاً فى صفحتين ونصف صفحة وقد جاء فى هذا الخطاب القصير كل ما جاء فى خطابات العرش الأخيرة ..

« أما خطاب العرش الأخير ، فقد زاد الله في حجمه ، وأصبح في خمس وثلاثين صفحة - وكنت أعتقد أن زيادة خطاب العرش من صفحتين ونصف صفحة إلى خمس وثلاثين صفحة - أى بما يعادل ١٤٠٠ ٪ قد يعود على البلاد بخير ، لا بنسبة ١٤٠٠ ٪ - ولكن على الأقل بنسبة ٧٠٠ ٪ ، أو ٦٠٠ ٪ أو حتى ١٠٦ ٪ » (١)

إننا نفسر هذه الظاهرة بالإفلاس إفلاس الحكومة ، وإفلاس الأحزاب التي تنشئها وتكونها ، من المناهج المرسومة والدراسات الواعية . . .

٤ - ديموقراطية الحزب ؛ ولكي نصصح شخصية الشعب . يجب أن نصصح شخصية الحزب مادما نرى الحياة الحزبية من أهم مقومات الشخصية ، شخصية الأمة والدولة . وشخصية الحزب لا تكون صحيحة سوى حتى تصطبغ بالديمقراطية الحقة ، فهل أحزابنا كذلك .. ؟

إنها - وهذه الحقيقة - أندية سياسية تضم الترفين إلى العاطلين - مع محترفي السياسة والكلام .. ؟ إنها منصرفة بل عازقة عن الشعب ومشاكله مما أدى إلى خلق جيل جديد . لا يؤمن بأحزابه ، ولا بزعمائه مع أننا في أمس الحاجة إلى الإيمان بأحزابنا ، وبقاداتنا حتى لا نتقسم على أنفسنا ، وحتى نتطور - دون أن ننكر - لمحاسن ماضينا .

يا أيها الزعماء (٢) - تعرفوا إلى الشعب .. وامشوا معه في الأسواق إن كنتم تريدون لكم ، وله البقاء . . .

لقد سيقتموه في المعيشة سبقا بعيداً . . . فعجزتم عن أن تحسوا إحساسه ،

(١) مجموعة مضابط الانعقاد الحادى والمعرين س ٢١٥ .

(٢) هذا النداء إلى زعماء العهد الماضى حين صدور الطبعة الأولى من الكتاب

وتشعروا بشعوره ومهما تحاولوا اليوم أن تتجثلوا ، أو تتخيلوا آلامه وعناءه ،
فلن تستطيعوا حتى تعودوا إليه .. كيف يحس رجل مترف ، تستقبله كل يوم
مائدة متخمة بمناعم الطعام والشراب . إحساس رجل أضيق أمعاءه القديد
اليابس المتبل بالذباب والتراب .. ؟

لقد سكن غاندى فى حى « الكناسين » لىستطيع أولاً أن يحس نفس
الأحاسيس التى يعانىها سكان هذا الحى من المنبوذين .. ثم لىستطيع ثانياً أن يرفع
عنهم آصار هذا التحقير من بنى وطنه الهنود ..

ونحن لا نكلف زعماءنا وسادتنا بمثل ما كلف غاندى نفسه .. لأنهم لم
يتجثلوا بعد فى وجداناتهم صورة صحيحة للزعامة الرشيدة ، إنهم لا يزالون يرونها
علواً فى الأرض ، وإشرافاً على « المنبوذين » من مكان بعيد . نعم ، لن ندعوم
إلى مساكنة الفقراء .. فتعالوا عن ذلك علواً كبيراً . وإنما ندعومهم — وحسبنا
هذا منهم — أن يعيشوا فى إحساس الجماهير ، ولو على ضوء ما يقرأون من
أخبارها وشكواها ، وأن يجوسوا ، ولو مرة خلال النجوع والكهوف ،
خلال الظلام والبلى .. ليعلم الشعب أن زعماءه يذكرونه ، ويشاركونه .. فتقوم
بينه وبينهم علاقات إنسانية متأخية ، وأن يكلف زعيم الحزب جميع نوابه
وشيوخه زيارة دوائرهم زيارات دورية فاحصة ، ويرفع كل عضو من هؤلاء
تقريراً دورياً عن زيارته ومقترحاته .

هذه هى بعض المقترحات التى تتيح لنا الانتفاع بأحزابنا ولا بد لنا من أن
نقرر مرة أخرى — أنه إذا كان لأحزابنا خطايا وأخطاء ، فهى ليست أصيلة
ولا دائمة .. ووصفها بذلك تشاؤم لا مبرر له ولا دليل ، ووجود هذه الأخطاء
لا يبرر التهوين من قيمة الأحزاب ، وحمية قيامها .

ولا يبرر أبداً المطالبة بإلغائها ، أو توحيدها .

إن غاية ماثيره وتدعونا إليه — هو الإصلاح الحاسم السريع .

دور الشعب في تقويم الأحزاب :

والشعب في إصلاح الحياة الحزبية دور هام ، فعلى أحدنا إذا شارك حزبا من الأحزاب طريقه ، أن يجعل صلته به صلة تعاون — لا تعصب .

إننا نفسد رسالتنا وزعماءنا ، حين نؤمن بهم إيمان الدراويش بشيوخهم ، ونحون أنفسنا خيانة كبرى حين نلأش وجودنا وشخصياتنا في خضم الولاء الأبله ، والثقة العمياء .

في عام « ١٩٤٦ » كان أحد الزعماء يحرض الشباب جبهة على العمل لإسقاط الوزارة القائمة بحجة عمالاتها للانجليز برغبتها في مفاوضاتهم ، وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة أخرى . وقررت مفاوضة الانجليز . وهنا نلتقى بنفس الزعيم بحث الطلبة على الهدوء ونيهام عن كل عمل قد يعرقل سير المفاوضة . فلما ذكروه بنفسه ، وبكلماته في الأسر الرطيب ، أجابهم في حيلة ودهاء :

« — إن الشعب الانجليزى ناثر على حكومته ، وهو يطالبها برد أبنائه المجندين بمصر وغير مصر من البلاد المحتلة . والحكومة البريطانية تعتذر عن تسريحهم أمام الشعب بأن هذه البلاد ومنها مصر ناثرة ضد بريطانيا . فلا بد من إبقاء جيش الاحتلال . فأذا أحدثتم أى شغب انتفعت به الحكومة البريطانية في إسكات شعبها اللحوج ... »

لم يكن الزعيم — كما سترى — يؤمن بحرف واخدما يقول ، ولتكن الأتباع المستسلمين حركوا شفاههم إعجابا ، وانطلقوا يبشرون من وراءهم بهذا المنطق العجيب !

وأعجب الزعيم أيضاً بذكائه فاستعرض وجوه جلسائه وقال :

— أظن أننا أحسن اختيار الشكيلة . . ؟

وخرجت ليلتها أفكر : ما الذى أمسك بألسنة الطلبة عن مناقشة هذا المنطق المتهافت . . ؟

وأجبت نفسى : إنه الإيمان الأعمى بالزعماء ، وانمياح شخصية هذه الدمية الأدمية وانطفاء نور الاعتداد فيها .

فإذا شئنا تقويم أحزابنا ، لنفيد منها ونمو بها ، فلنحتفظ بشخصيتنا إزاءها . وشيء آخر لا يقل أهمية — وقد يزيد . هو أن نبجل ثقتنا عن أن تلقى بها تحت أقدام الدين لا يستحقون سوى الصفع والازدراء . وأن نمنحها للذين هم بها جديرون فى أناة وقصد . وشيء ثالث — هو أن نكون دائماً ممثلين للأمة فى الحزب . ، لا ممثلين للحزب فى الأمة — بمعنى أن نتوسل بالحزب لخدمة الشعب . ، لا أن نتوسل بالشعب لخدمة الحزب .

ج — القيم والمعايير

هذا ختام العناصر التى آثرناها بالعرض . ودعونا للتواصى بها حتى تتألف منها للجماهير شخصية أمرة مهيمنة .

ومعايير الأمة هى مناط تقدمها أو انحطاطها . ونعنى بالقيم والمعايير — تلك القواعد والمساومات التى تسيطر على وجدانها ، وتوجه نشاطها . أرأيت أمة يسود فيها مثلاً — الإيمان بالقناعة . إنها تسمى قنوعاً فى كل شيء ليس فقط فى لقمة الحبز . . بل وفى طلب المجد كذلك

ولن نفيض هنا فى الحديث عن تلك القيم . فجمال الإسهاب فيها كتب

الأخلاق . إنما نعرضها من زاوية حاجتنا كشعب طامح إلى الحرية والخلاص .
لا بد لنا من قيم عليا نابضة ، تنيط بها حياتنا . . وتنظم حولها نضالنا مع الأيام .
فلنبحث معاً عن محاور تدور حوله معايير الشرف والمجد جميعها ، ولترفعه تجاه
أبصارنا ، ثم نصبه صبا في كياتنا . أما أن نختلف حق في اختيار القيم التي ينبغي
أن نصل بها أنفسنا ، فضلال بعيد ، إننا لا نحاول فهم الأشياء ولا تحديدها . .
والذي ينقصنا هو « النظرة المحددة لأنفسنا . وللحياة » .

ما نحن . . ؟

بشرية نامية تدور حول الشمس ، وتتفاعل مع التطور السيار . .
أم بشرية محنطة جعلتها الأقدار آية زاجرة للذين لا يؤمنون بالمسيرة
والتجديد ؟

وماذا نريد . . ؟

أن نظل سوائم ذللاً نفضد الراحة ، ونخلد إلى الأرض ؟
أم نحترم آدميتنا ، فنشد الحرية بلا وجل . . ونكرس حياتنا لتحقيقها
والظفر بها ؟

وما الحياة . . ؟

أهي ألقاز ، ومعميات . غاية سعينا أن نفلسفها ونفهمها . ؟

أم هي سعادة متاحة تناديننا لننالها ونحياها ؟

نعم . نريد من الحياة أن نحياها . فكيف السبيل . . ؟

السبيل — أن نجيب أولاً على هذا السؤال . .

هل نحن سكان غاب . . أم سكان وطن . . ؟

إذا كانت الأولى ، فلندع أمورنا تسير إذن على النحو الذي تسير عليه حياة

الغاب . وإذا كانت الثانية فلا بد — وهذه حقيقة يجب أن تتقبلها بشجاعة —
لا بد من أن نستأنس ونحقق لأنفسنا معنى المواطنة كاملاً غير منقوص .
وإذن ، فالمواطنة . هي المحور الذي نختاره لتنظم حوله شتى قيمنا ، وكافة
معاييرنا .

المواطنة — يامواطني العزيز هي من الآن مثلنا الأعلى .
المواطنة — هي من الآن هدفنا المجيد القدى .
المواطنة — أن تكون في وطنك مواطناً — لامستوطننا .. وأن تكون
في المجتمع كفوؤاً ونداً — لا تابعا ولا عبداً .
والمواطنة — تقتضي أن تكون في وطنك مواطناً — لا لمجرد حب
الفضيلة ، ولا لمجرد الرغبة في الخير .. بل لتكون ياصاحبي جديراً
بوطنك ..

ونستطيع الآن أن ننصت لمؤلف « التربية لعالم حائر » يحدثنا عن المواطنة
حديثاً بليغاً (١) .

« .. إذا نظرنا إلى المواطنة نظرة صحيحة — وجب أن تشمل جميع أعمال
الإنسان التي تمس بنى جلده ، وتؤثر في سلامة الدولة ورخائها — ونكاد
تكون صنوا لواجباته نحو جاره ، وتضمن هذه المواطنة كل شيء تقتضيه شرائع
الدولة ، ويتطلبه الضمير الانساني .

وليست المواطنة شيئاً سلبياً — أي مجرد امتناع المرء عن التصرفات الغير
وطنية . بل هي عمل إيجابي . وفي هذا يقول « بركليس » — إننا لانعد الرجل

(١) هو سير وتشيرد للفنجستون ومغرب الكتاب — الأستاذ وديع الضيم .

الذى يقف موقف العزلة أمام الواجبات العامة رجلا هادئا . بل نعهده رجلا
لاخير فيه .. ويقول «بيرك» الحياة العامة مركز للسلطان والنشاط . والرجل
الذى ينام أثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من
ينضم إلى أعداء بلاده .. »

ويستطرد لفنجستون قائلا :

« والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون
جزءا من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى أعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل
مصلحته الخاصة

« وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءا واحدا من أجزائها معطلا ، أو خاملا
أو صادئا ، أو مكسورا ، أو موضوعا فى غير موضعه . وفيها يساهم كل تروس
بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق .

« فالرجل الذى يتخلص من أداء الضرائب المفروضة عليه — مواطن
رديء ، ومثله أيضا الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات
البرلمانية إلا فى مصالحه الخاصة ، أو يهمل الاقتراع بتاتا — وتلك أيضا حال
صاحب العمل الذى يضاعف مشا كل وطنه بسوء معاملة عماله . . . ومثل
هؤلاء أيضا أرباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعملاؤها ،
والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الأقدار .»

بهذه البسطة من الفهم — صور لفنجستون جغرافية للمواطنة ، ووضع معالمها
وضرب الأمثال للتبعات الشداد التى تفرضها على أصحابها .

إن المواطنة ، كما رأينا — دين يدعو المواطن إلى بذل الواجب من أجل
الوطن . ، ويدعو الوطن إلى تمكين الفرد من أداء الواجب .

هي ألا تعيش في بلادك محايدا — بل مجاهدا .. هي أن تحترم حقوقك ،
وتمارسها حقا حقا .. هي أن تدوس مصالحك الخاصة — عندما تصبح مصائر
بلادك في كف القدر .. وهي أن تعامل الدولة أعضائها ، باعتبارهم مواطنين —
لأرعيا ..

وأن توظف في ضميرها معاني الإنسانية والكرامة : وأن تضع كل مواطن
في مكانه . وتتحدى كل اعتبار آخر يفتح للمحاباة الطريق . وأن تعدل — ليس
فقط في توزيع الخبز .. بل قبل ذلك في توزيع الواجبات والحقوق . وأن
ترفع لواء المساواة — ليس فقط بين الناس ، والناس . ، بل وبين العمل
والجزاء . . . فالأشراف العاطلون الذين لا يعملون شيئا . يجب أن يحرموا من
كل شيء ، وإذا أغدقت الدولة عليهم تكريمها فقد انتهكت كرامة المواطنين ،
وحطمت معنى المساواة . . .

والعاملون الكادحون يستحقون التقدير والتوقير — فإذا بخلت عليهم
الدولة ، وازدرتهم ، فقد بادت بشر ما يبوء به الظالمون ! !
بقي شيء آخر ، هو أسمى ما تتيحه للمواطنة للناس — الكرامة ...

فأظما إن أبدى لي الماء منة ولو كان لي نهر الهجرة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل لصار الهدى ألا أمل إلى الهدى
وإذا لم يجد المواطن من دولته الحرص على كرامته ، فما أصعب الاحتفاظ
بها والحرص عليها ..

وهؤلاء الذين وجدوا طريق الوصول — التملق ، فتملقوا وناققوا وهانوا
وهؤلاء الذين رأوا الدولة تهملهم ، فأهملوها ، وحسبوها تخونهم ، خفانوها ..
هؤلاء ، وهؤلاء — ما الذي أغراهم بالكرامة والواجب . . . ؟

إنه إهمال الدولة لأريب .. إهمالها الأخذ بمبدأ السوائية بين مواطنيها . ومالم تقض على مظاهر التمايز غير المشروع ، فسنظل أمة بطيئة الاحساس بكرامتها ..

أنفوا هذه الألقاب ..

ومسألة الألقاب في مصر من أهم مشاكلنا — قد يراها بعضنا مسألة شكلية تافهة . وهذا منهم حسن ظن عجيب . والحقيقة أن الألقاب في بلادنا مصدر قلق وإزعاج للكرامة القومية بل والانسانية .

إنها إذلال لكبرياء الشعب ، وإيقار لصدرة وإرباء لروح الطبقة المقيمة فيه . وإذا كان لابد من مثوبة شرفية تستحث بها الدولة مواطنيها نحو التبريز والتفوق والكمال ، فلتكن كلمة « مواطن » .

صحيح أن لقب « مواطن » حق طبيعي لكل فرد في وطن .. ولكن الدولة حين تمنحه أحدا — يكون اعترافا منها بأنه قد أدى واجبات المواطنة ، واستحق تكريم الدولة واحترامها ..

أما لقب « باشا » مثلا ، فهناك أكثر من سبب يحتم علينا هجره وإلغاءه؛ فهو:

أولا — لقب غير وطني ، وهو من بقايا الاستعمار التركي العثماني . والأمة التي تمجز حق عن تمصير ألقابها — أمة ساقطة ..

ثانيا — هو رمز بغض للباشوات الأتراك الذين كان السلاطين يولونهم أمرا .. ، فيقتلون آباءنا ، ويستحيون نساءنا . وينهبون أرواقنا ..

ثالثا — إن أول رتبة « باشوية » أنعم بها في مصر — كانت لمن خيانة أوطانها المنعم عليه ..

فقد حدث عندما غزا بلادنا سلطان البرين ، و خاقان البحرين .. السلطان سليم
أن انحاز إليه أمير شركس اسمه « خيربك » وقد لعب هذا الرجل دوراً هاماً في
تصفية المقاومة ، وتعيد الجماهير للغازي سليم فاجتباء وأنعم عليه بلقب « باشا » ..
وهكذا ظهرت الباشوية في مصر .. وتوالت علينا بعد ذلك أرجال الباشوات
كانها جراد منتشر . . .

وكان لقب « باشا » رشوة تركية يغري السلاطين بها سفهاء الأحلام والنهى
ليتفانوا في خدمتهم التي تقوم على الجبي والظلم . وكانت أيضاً أداة يتوسلون بها
لإذلال الشعب وأشاعة الشعور بالدونية في نفسه أمام طبقة الباشوات العاطلين ..
فلماذا إذن نبقى على ألقاب غير مصرية . ألقاب حملها من قديم الزمن أناس
شردونا ، واستباحوا دورنا وحمانا ؟

ألقاب كان لها منذ حين قريب سماسة يتجرون بها علناً ، ويبيعونها جهاراً نهاراً ..
يقول المواطن الأستاذ : « أحمد لطفي السيد » في مذكراته المنشورة بالمصور
العدد (١٣٥٤) :

« من أجل هذا الشرف الوهمي تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت
تباع في ذلك العهد وتحدثت بها الصحف عام ١٩٠٨ — وقد كان لها سماسة
يسعون في الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لامكافأة على عمل من
أعمال البسالة .. ولا على خدومه من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين
يشترون ألقاب التشريف .. وكان السماسر يأخذ المقدم من المشتري ، فإذا تم
التشريف أخذ المؤخر .

« وكانت الحكومة في ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس
دائماً يهتمون برضاها عنهم .. فهي تلعب بأهوائهم ، وشهواتهم ، وتأسرهم بها .

« وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت إلى الحكومات الحديثة فكانت أثراً من آثار الاستبداد الأولى ».

أرايتم : ؟ أولئك هم الباشوات الذين كان أجدادنا يرتعدون أمامهم فرقا .. لم يكونوا على شيء من العلم ، ولا من الصلاحية . ولكنهم اشتروا من السامسة لقباً فضفاضاً يسترون به هزاهم ويتألهون به على العباد . ١

ما أروع ابن عبد الله — حين ناداه صحبه — أنت سيدنا ، فقال غاضباً : « لا يستهوينكم الشيطان ، ولا تقولوا عني «سيد» .. إنما أنا عبد الله ورسوله . ١١ ».

ثم ما أبلغ العبارة التي رفض بها « برناردشو » الألقاب الكثيرة التي عرضت عليه : « إنها قيود من ذهب ، تضطر الإنسان لأن ينحن كي توضع في رقبتة » . ١٠

وما أشد حاجة الأمة التي تهملت شخصيتها وتلاشت ، إلى بند مظاهر التمايز ، وإمالة « الألقاب » عن الطريق .. إن اللقب دثار يغطي عري لابسه .. عريه الوطني وعريه الأخلاقي .

ألم يكن كذلك . لحير بك . الذي صار خير « باشا » فغطى خيائته إلى حين . . . ؟

ونحن على يقين من أن الدين يسفكون كرامتهم ، ويهرقون ماء وجوههم لينالوا لقباً إنما يحفزهم لهذا الرغبة المنحطة في التبذخ على الشعب ، فلنقطع عليهم السبيل ، ولننض عن أعناقنا هذه الأطواق .

وبعد ، فهل يمكن أن نكون مواطنين بلا وطن ؟

لقد وضحنا في هذا الفصل إلى حد ما الوسائل التي تفضي بنا إلى إنهاض شخصية الشعب كي تعمل .

ولكن أين تعمل إذا هي لم تجد لها مجالا . ؟ لابد لنا من وطن يكون خالصاً لنا دون المستعمرين والمستغلين .

ومصر — هي الأرض التي درجنا منها ، ومهدنا فيها ، ورضعنا بلبانها .
ولكن الاستعمار اختلسها منا .. وصيرنا فيها غرباء وصبح كل مقوماتها بلونه ، ومن أردنا من الاستعمار صبغة . ؟
ومهمتنا الكبرى تحرير الوطن .
فكيف السبيل ؟

تفسير مصر...

« اتسكن غابتنا في الحياة — بلادنا

» بلادنا وحدها . .

» وبلادنا كلها . .

» ولا شيء إلا بلادنا » .

بلاد من ٢

في الفصل الأول من الكتاب رأينا كيف دخل الإنجليز مصر وكيف دخلها قبلهم الأتراك . ثم كيف صار بعضهم لبعض ظهيرا .

وقلنا — إن الاستعمار التركي قد اختفى حكمه — وبقيت تقاليد وشعائره وأحكامه . ولكي نمصر مصر ، لابد من أن ننفي عنها هذه البقايا ونطهر حياتنا من تلك الشعائر والأحراش وذكرنا أن الطريق لهذا — هو الحرية الفاعمة ، وتقويم شخصية الشعب ، وشد زناد الكرامة والكبرياء فيها — وفي هذا الفصل نتدارس الوسائل للفلحة التي نمصر بها مصر من الاستعمار البريطاني ، وخلق بنا أن ندرك بادية الأمر ، أننا حتى اليوم لم نحدد وعينا لهذا الاستعمار ، ولم نحدد الوسائل المجدية في مكافحته وطرده ولعل سبب ذلك أننا لم نؤت بصرا كاملا بأخطاره وأوزاره ومدلوله . .

فالكثرة الغالبة منا تولى وجهها شطر الجيوش الرابضة في القنال ، ثم تميز من الغيظ ، وتظن أن هذا الاحتلال المسلح هو وحده — الاستعمار البريطاني .

علينا أن تعمق فهم هذا الاستعمار ونفوقه . وعلينا قبل الخطوة الأولى أن نعلم أن هذه الجيوش المعتدية التي « برطنت » منطقة فايد وجعلتها مدينة إنجليزية كبرى .

١ هذه الجيوش التي تسبب لنا الضنك والغلاء بما تستهلكه من منتجاتنا الزراعية استهلاكاً تنوء بحملة الأرقام . هذه الجيوش التي تطأ بعالمها كرامة الشعب

وطموحه — ليست الاحتلال البريطاني . ولكنها فقط مظهر من مظاهر الاحتلال .

ومن الممكن جداً أن تجلو القوات البريطانية عن ديارنا .. ويظل جاثماً ينشر وباءه وبلاءه . وإنه لأمر مؤسف أن تغيب هذه الحقيقة عن بصائرنا . ألا تذكرون الأيام الغيبة التي حشدت الدولة فيها كل مظاهر الخفاوة والفرح بعيد الجلاء . جلاء بضع كتائب عن (القاهرة) فهل لنا وكبرنا ، ونحن نعلم أنها متعسكة على بعد خطوات .. ا

لقد كانت هذه الظاهرة ، ولا تزال آية على أننا نحس حقوقنا إحساس العبيد لا إحساس الأحرار . ولقد كان مثل الأنجليز معنا بهذا الجلاء كمثل لص تسور الأبواب ، واقتحم الدار على أهلها ، وأشاع في البيت الرعب والفش والفساد ، ثم أخيراً تفضل وتكرم . وقرر أن يدع لأهل البيت غرفة النوم . ويذهب هو ببقية الحجرات . فلننظر إلى الاستعمار نظرة واعية شاملة . ثم لننص في طريق إجلائه أو إفنائه .

النفوذ ، والاحتلال :

قلنا : إن الاحتلال العسكري لبصر مظهر من مظاهر الاستعمار . ولا يزيد . وهو وإن يك أكثر المظاهر بشاعة ودناءة ، وأفعليها في إثارة كوامن الحقد والثأر — إلا أنه لا ينبغي أن يشغلنا به وحده عن بقية المظاهر والآثار .. بل يجب أن يتجه كفاحنا إليها جميعاً بعد حصرها وتحديدتها ..

والاستعمار يعتمد هنا على شيئين :

(١) النفوذ السياسى .

(ب) الاحتلال العسكري ..

ولنبداً بالحديث عن أولها متبعين نقط ارتكازه ثم باحثين عن طرائق إبادتها واجتثاثها .

النفوذ السياسى :

إن بريطانيا تسيطر على حياتنا ووجودنا سيطرة سياسية عجيبة .. وآراؤها ، وخططها هى عجالات الآلة الدوارة . ونحن — شعباً ودولة — لسنا أكثر من الصوت الخارجى لهذه العجلات ..

إننا أمة لا نريد .. بل يراد لها .. ١

• يراد لها أن تنشئ جامعة عربية ، تزيدنا وهنا على وهن ، فتنشئها .

• ويراد لها أن تبرم معاهدة لتؤكد مشروعية الاستعمار فتبرمها .

• ويراد لها أن تخوض حروباً مرتجلة ، فتخوضها .

• ويراد لها عام « ١٩٢١ » أن تدخل فى مفاوضات مع مستعمرها لتخرق وحدتها ، فتدخل فيها .

• ثم يزداد لها الدخول فى مفاوضات أخرى — هى امتداد لنفس المفاوضات القديمة جداً .. فتسارع وتهافت .

• يراد لها أن يحكمها هذا الحزب . فيحكمها .. ثم تتغير المشيئة ، ويراد لها أن يحكمها حزب آخر ، فتم الأمور على مايراد .

ونحن فى كل هذه النقل والتغيرات والأحداث نظن أننا نتحرك بأرادتنا ، ونفكر بعقولنا ونقف على أرجلنا . ١

إن تطهير « الإرادة المصرية » من هذا النفوذ السياسى ، لا يقل أهمية عن تطهير « الأرض المصرية » من الاحتلال العسكرى — فاذكروا هذا جيداً ، ودعونا نسأل : على أى شيء يرتكز النفوذ البريطانى ؟ .

هذه نقط ارتكازه ..

١ — المعاهدات :

عندما يريد الاستعمار استعباد أمة واستئثارها يحاول جاهداً أن يربطها بعجلته عن طريق صك عبودى — يسمى فى اللغة المظلومة . « المعاهدة » ؟ وبريطانيا تعلم أن هذا العصر الذى تعيشه الإنسانية ليس عصر احتلال بالجيوش . فالشعوب تنفر من رؤية الغزاة يروحون فى بلادها ويحيثون ، لذلك فهى تستعيز عن الاحتلال العسكرى بالاحتلال السياسى — أى بالمعاهدات . وعن طريق المعاهدات يصلون إلى كل الأغراض التى كان الاحتلال المسلح يحققها لهم . فباسم المعاهدات يهرمون حليفهم من التسليح . وباسم المعاهدات يثيرون فى الشعب الحليف كل أنواع الفتن والمؤامرات . وباسم المعاهدات تجتاز طائراتهم المناطق الحرام عنوة واقتساراً . وباسم المعاهدات يحاصرون قصر الملك الذى تحالفهم حكومته .. وباسم المعاهدات تؤخذ أقوات الشعب وخيراتهم ليطعم بها الجيش المحتل ، ولتباع إلى الدول المعادية التى أنشأها حلفاؤنا إنشاء لتكون لنا شوكة الجنب على الدوام . وباسم المعاهدات يجترح الاستعمار — وهو يبتسم — كل المقابح التى كان يقتربها ، وهو يزجر .. ! والدليل الذى ليس بعده دليل على أن المعاهدة هى بديل الاحتلال العسكرى تثبت بريطانيا بعقدها معنا .

لقد كنا نحسب أننا خلقنا فقط لتألم ، ثم نموت . بيد أننا تبيننا أخيراً — أننا خلقنا لتألم ، ونحالف بريطانيا .. ثم نموت . !

لماذا نحالفها .. ؟ وهل تشجع سوابقها على بناء حلف معها . ؟

لقد حالفناها بمعاهدة « ٣٦ » وكان لهذه المعاهدة معنا قصة الينغاء التي تجيد جميع اللغات .

أو تعرفونها معشر الزعماء . ؟ اقرءوها فقد ترون فيها فائدة ودرسا .

رووا — أن رجلا كان يملك « يينغاء » أعياء غباؤها المطبق ، فاجتهد أن يعلمها فقط هذه العبارة « لاشك في ذلك » ثم خرج بها إلى السوق ونادى : — من يشتري يينغاء تتكلم جميع اللغات .. ؟ — وساق الحظ إليه زبونا مغفلا تقدم إليها وسألها : — هل تجيدن جميع اللغات . ؟ أجابت : لاشك في ذلك .

فاستخفه الطرب ، ونقد صاحبها كل مامعه من مال .

وهناك في قصره الكبير ، أقام لها حفل استقبال دعا إليه أصدقاءه من كل ناحية ولسان ، وبعد تناول المرطبات قدم إليهم ، أو قدمهم إلى يينغاء الشرف والكمال . وأخذ كل منهم يخاطبها بلسانه . وهي لا تجيب بغير هذه العبارة — لاشك في ذلك .. !

وأدرك صاحبنا هول الكارثة — فلما انصرف الضيوف اقترب منها في خطوات متهاكة ودار بينهما هذا الحوار :

هو — إذن ، فأنت لا تعرفين شيئا .. ؟

هي — لا شك في ذلك .

هو — وإذن فأنا مغفل مخدوع . ؟

هي — لاشك في ذلك .. !

وحملها من فوره ، ومضى يبحث عن بائعها حتى اهتدى إليه — وهناك
أجلسها أمامه وسألها : أن بائعك هذا أفاق وغشاش — أليس كذلك ؟

أجابت - لاشك في ذلك .

قال — ويستحق الزجر والعقاب ؟ أجابت : لاشك في ذلك ، وقذف بها
في وجهه ، واسترد ثمنها ومضى .

أليست قصة هذه البيغاء هي بالضبط قصة معاهدة « ٣٦ » مع فاروق هام .
هو أن مخدوع البيغاء مسح الإهانة عن نفسه ، واسترد حقه المنهوب . . . لقد رجع
زعمائنا إلينا ذات يوم يحملون معاهدة جعلوا منها « ملكة جمال » المعاهدات . !
وفي غمرة الحفاوة بها ، وقبل أن يجف مدادها سألناها :

— أيجوز أن يبيعنا الانجليز غداة توقيعك ذخيرة « كذابة » . ؟

أجابت : لاشك في ذلك !

— أيليق أن يتخلوا عن التزاماتهم نحونا في معركة فلسطين ؟ أجابت :
لاشك في ذلك . !

— أيجوز أن يتقاضوا منا ثمن أسلحة . . ثم يحنثون بالعقد ويبيعون السلاح
لإسرائيل ؟ أجابت ، لاشك في ذلك !

— أيجوز أن يشيدوا في بلادنا مدائن باذخة ، بعد أن كانوا يسكنون
قصورا متداعيا على ضفة النيل . . ؟ أجابت : لاشك في ذلك . !

أيجوز أن يمحروا مياهنا حاملين البترول والمعدات لإسرائيل التي لا تزال
تربص بنا . . ؟ أجابت : لاشك في ذلك . !

— إذن ، فلست معاهدة شرف واستقلال . . ؟ أجابت : لاشك في ذلك !

— وإذن ، فنحن مغفلون مخدوعون — ؟

أجابت : لاشك في ذلك . ١

إن كل معاهدة تعقد اليوم ، أو تبرم غدا مع بريطانيا لن تكون أحسن حالا من سابقتها ، وأن الطريق الوحيد المفضي لعهد شريف أبي عزيز أن يجلو عن بلادنا النفوذ السياسي والاحتلال العسكري البريطاني .. ثم بعد ذلك تفكر بعقولنا ، ونريد لأنفسنا بأنفسنا .. أما معاهدة يساوينا بها للمستعمر على استقلالنا — فأهون منها عديمها .. وبقاء الاستعمار غير متافع بأردية كاذبة خادعة من الانفاقيات والمعاهدات ، أيجوز بعد كل هذا أن نحالف الذين جعلونا سخرية وهزوا .. ؟؟

لقد خادع حلفاء الرسول حليفهم مرة واحدة ، فقطع الله حبال هذا العهد في سورة عاصفة أبي أن يبدأها بيسم الله الرحمن الرحيم حتى تأخذ طابع القسوة والازدراء والهجوم فقال تعالى :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » .

ثم رسم الخطة لتنفيذ هذا الفسخ فقال :

— « خذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » . ١

وانجلترا نفسها تأست بالقرآن في ظروف مشابهة ، مع أنها كانت تمثل جانب البغي والعدوان .. فحين هب رشيد عالي الكيلاني في وجهها قالت : هذا خرق المعاهدة ، وبعد ساعات ، كانت السماء تمطر جنودا حاربوا العراق حربا خاطفة عسيفا .

ولقد كان الوضع الطبيعي ، وقد خرقوا ما بيننا من عهد أكثر من مرة أن نصنع ما كانوا لابد صانعيه لو أنهم مكاننا — فنأخذهم .. ونحصرهم .. ونقعد لهم كل مرصد وطريق .

قد يقال : إن بريطانيا اليوم غيرها في الأس البعيد والقريب — بريطانيا العمال — غير بريطانيا المحافظين ألا فلنستمع إذن لآية فاصلة من انجليزى عريق تمرد على سياسة بلاده وحرص عليها جميع البشر وكشف للناس عن «ثعبانيتها» وتأصل الغدر فيها — ذلكم هو توماس بين : فلننصت لكلمته ، ولنحفظها ولنلقنها صغارنا والكبار ..

« هل تستطيع أن ترد إلى المومس طهارتها الأولى .. ؟ إن السياسة البريطانية كذلك — فقلت إلى الأبد شرف القصد ، وطهارة الضمير » ١١
ولكن قد يقنعنا الانجليز بأن « بين » كان رجلاً آتقاً عاقباً .
فاندرس أخلاق سياستهم إذن على ضوء عبارة أخرى قالها قطبهم الأكبر « دزرائيلي » واتخذوها مبدأ وشعاراً — تلك هي :
« اكذب... واكذب... ثم اكذب دائماً ، فلا بد أن تجد من يصدقك » ١٢
إن الانجليز لا يصلح معهم عهد أبداً — إلا إذا كان مع قوم أولى بأس شديد يخافونهم ويهربونهم ..

ونستطيع أن نفترض حسن نيتهم إذا ما عاهدناهم من جديد ، وننسى طغوتهم وفسادهم الكبير .. ولكن مع هذا أيضاً لا يكون من صالحنا قط أن نتخذهم حلفاء أو أصدقاء ... لماذا ؟

لأن الانجليز تعودوا دائماً أن يتخذوا من حليفهم « كبش الفداء » ولقد ذاق الأمريكان أنفسهم مرارة هذه التجربة ، وسربوا غيظهم أيام الحرب الأخيرة في سخریات .. أطلقوها

دخلت سيده أمريكية المسرح ، فوجدت الجنود الانجليز يحتلون جميع المقاعد الأمامية ، فقالت : إن الإنجليز في المسارح يحتلون الصفوف الأمامية ويتركون

الخلفية لنا - ولكنهم في الميدان يحتلون الصفوف الخلفية ، ويتركون الأمامية
لأبنائنا . ١

هذا تعبير رائع ، وفهم دقيق لأخلاق الإنجليز فالمعاهدات التي تربط الضعيف
بالقوى ستكون من باب أولى غير متكافئة وستكون ثمرتها مشروعية الاحتلال
وأحر بنا أن يحتلنا الإنجليز بإكراه ، من أن يحتلونا بمعاهدة ورضا واختيار .

شاهد من أهلها :

ثم إن أي معاهدة جديدة تربطنا بالإنجليز ، سيكون عصبها الدفاع المشترك
وهذا الدفاع المشترك كائنا ما كان اسمه وطريقته - يقف في الواجهة المغايرة
للسيادة والاستقلال .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك - بل هو السيد « بيفن » نفسه - وإلى
زعمائنا الأبرار تقدم هذه العبارات التي قد تنير لهم الطريق .

في نوفمبر سنة ١٩٤٥ - وقف مستر بيفن يخطب في مأدبة العرفة المصرية
البريطانية فقال مخاطباً الأعضاء المصريين :

« . . ولكن يجب أن يبقى مандعوه بالدفاع المشترك ، لأنه لاغنى لأحدنا
عن الآخر - وأن الاستقلال آت لا ريب فيه . . ١ »

إذن فالدفاع المشترك شيء آخر يناقى الاستقلال ولا يظاھرہ .

ويفن يريد منا سنة ٤٥ أن نوافق على الدفاع المشترك ، ويطمئننا على أن
الاستقلال آت في ميقات مجهول قد يعلمه « بيفن » ولكن للمصريين آخر الذين
يعلمون . . والذين لا يعلمون . . ١ وبهذا المقدار من الحديث نرجو أن نكون

قد وقفنا على ما في التحالف مع الانجليز من غم وبوار ، ومنتهى عن وسائل الخلاص بعد أن تم سرديقية القواعد التي يرتكز عليها نفوذ الاستعمار .

(ب) الأرجاف بالشيوعية والحرب :

إن بريطانيا المومس ، لن تسترد طهارتها الأولى هذا إذا كانت السياسة البريطانية قد أتت عليها حين من الطهر والنقاء .

انظروا .. إن أسلوبها الاستعماري لم يتغير .

والأحفاد من ماستها يسرون وراء الأجداد حذو النعل . بالنعل فيوم دخلت بلادنا لأول مرة ، زعمت أنها آتية لتثبيت سلطة الباب العالي . وطرد الفرنسيين الطغاة ، وكانت إنجلترا يومئذ تزعم حركة مقاومة عنيفة للثورة الفرنسية ولما يمكن أن يترتب عليها من تغيرات اجتماعية خطيرة .. ويوم استولى هتلر على حكم بلاده . وقف رئيس وزراء بريطانيا آتشد وقال :

« يجب أن نعاون الألمان على النمو والتسلح حتى نشرد بهم من وراءنا من الروس الخطرين . » - وفي سنة ١٩٣٦ - بدأت إنجلترا نفسها تزعم مقاومة عاتية ضد النازية - وضحكت علينا يومها واختلست منا توقيعها على معاهدة فاشلة هي معاهدة « ١٩٣٦ » .

واليوم لاخوف من ثورة فرنسية . ولا خوف من النازية . فبم تبرر إنجلترا بقاءها . ؟ بالشيوعية طبعاً .

فلتكن الشيوعية خطراً على بريطانيا كل الخطر ، ولتكن بريطانيا موطدة

العزم على محاربتها في عرينها الأول روسيا ، ليكن ذلك ، ويبقى أن نتساءل :
ماصلتنا نحن بهذه الفتنة ؟

مالنا وبريطانيا تحارب أو لا تحارب ، تظفر أو تهزم ... !

هل نحن إحدى كتلتي جيشها الثامن .. ؟

أو نحن وإياهم كما قال الشاعر العربي القديم :

أكلنا حاربت خزاعة تدعو في كائني لأمرهم جمل ؟؟

إن « الشيوعية » ضوء أحمر تسلطه بريطانيا على عيون الحاكمين لتزيح به
أبصارهم عن الهدف المتمثل في طردها ، وإجلائها ، ماذا كان يعني ييفن حين قال
أكثر من مرة وفي مناسبات عدة ، إن الشيوعية لن تسمح ببقاء الباشوات
إذا دخلت مصر .. ؟ !

قالها مرة في حديث صحفي .. وقالها لسفيرنا في لندن ونشرتها مجلة المصور
ضمن الوثائق السرية التي أذاعتها عن محادثات « عمرو - ييفن » أليس ذلك
أرجافاً وتخويفاً تهدف السياسة البريطانية بهما إلى قتل إرادة الباشوات والحاكمين
وعزلهم عن حركة المقاومة التي يدخرها الشعب للانجليز .. ؟

لكن الباشوات الذين عرض بهم ييفن سيخلفون ظنونه .. والذي يتخلى
منهم عن جهاد أمته لن يضيرنا ولن نغير به - لأنه ساعثنا لن يكون مصرياً ، ألم
يقول لنا « توماس بين » - أن المومس لا تسترد طهارتها الأولى ؟ - إن السياسة
التي احتفرت وقعة قديمة بين توفيق وعرابي ، وبين الباشوات والشعب .. تريد
اليوم أن تلعب نفس الدور . فتلقى في روع الحكام والزعماء أن الشعب يترصد
لهم لينهي حياتهم بفاجعة ويوهمون الشعب أن كبراءه ، وحكامه - يعملون
معهم ضده ، ولن تقر للمومس عين حتى تحقق اليوم نفس النتائج الأثيمة والوخيمة

ألقى حقتها بالأمس . وهذا يفتح أعيننا على نقطة الارتكاز الثالثة التي يعتمد عليها نفوذ الاستعمار .

(ج) شحذ بأسنا بيدنا .

والسياسة البريطانية لسكى تبقى وتسود ، توري نار البغضاء والفرقة إبراء موصولاً ، وتذر شعبنا المسكين يمور في حديدتها المفرغ ، وصخرها الأصم ، وهي في ذلك ذات براعة ومهارة ، ليست كالمفعل الأكبر «موسوليني» ، الذي كان يقيم لرعاياه المتدمرين حرب «المقلاع» ١

بل هي ترضن علينا حتى بضمن الرصاص الذي تفرغه في صدورنا وتركننا نحن نشترى الرصاص بأموالنا — ثم تحرصنا . فنطلقه لا في دماغ الاستعمار فتفجره تفجيراً بل نمزق به أنفسنا ، ونهرق به دماءنا . .

وهي تعتمد في تأليب بعضنا على بعض على سلاح تناهى في الخطورة هو — تشريد الثقة التي تربطنا ، وإشاعة روح الاتهام في المجتمع . . ولقد أفضى سعيها الخبيث في هذا السبيل إلى ما نحن فيه اليوم من استرابة في كل إخلاص ، وتصديق لكل شائعة واتهام . لقد قلنا من قبل : إن لبريطانيا سفارة أخرى غير رسمية ، سفارة مجهولة تحيط بكل شيء علماً . وتعلأ ضمير الأمة شكاً وريباً ، ومهمتها الأولى تشويه سمعة الزعماء والناصحين حتى لا يؤمن بهم الشعب ، وهذا نبأ قريب من آلاف الأنبياء التي تؤكد هذه الحقيقة أعمق تأكيد .

— في أثناء الحرب الأخيرة . أو في بداءتها — وقف الأستاذ الأكبر المبرور الشيخ « محمد مصطفى المراغي » وقال في خطاب أحد أعياد الهجرة — « أن العالم الإسلامي لن يخوض حرباً لا ناقة له فيها ولا جمل . . »

وفي صبيحة الأمسية التي أذيع فيها هذا الخطاب - كانت شعوب الشرق الاسلامي تردّد في انظن - هذه العبارة المستنيرة . . وأسرها الإنجليز في أنفسهم، وأصدرت السفارة غير الرسمية أوامرها إلى «لجنة الاشاعات والتهم» أن تشكك الجماهير في قيمة الشيخ المراغى ، وفي سلوكه وذات يوم عقب صلاة الجمعة ، إذا بالسماء تمطر ميلا من المنشورات تزعم أن الشيخ المراغى حضر ليلة « كذا » حفلة ساهرة بالسفارة الانجليزية وأنه شرب الخمر حتى فقد صوابه . . .

إن الإنجليز لا يهدفون بمثل هذا التشهير إلى هدم القيمة الشخصية والشعبية للمواطن المخلص وحسب بل هم يستهدفون غاية أبعد ، وهدفاً أخطر .

فهم يعلمون أن مجرى حياة الأمة هو مزيج إحساسها وتفكيرها . وتسميم هذا المجرى يتأتى بجعل الاتهام وسوء الظن بعض عناصر شعورنا وتفكيرنا ، ليفسدوا علينا أمرنا كله ، وهم قوم لا يعجزهم أن يفتانوا ويكذبوا . إن كبيرهم دزرائيلي علمهم أن يكذبوا - ويكذبوا دائماً ، فلا بد أن يجدوا من يصدقهم .

ولقد وجدوا فعلاً من يصدقهم ، وأسفها علينا ، ما أسرع ما نصدق وما أسرع ما نحاكى . فنحن لم نصدق خرصهم نخسب ، بل ذهبنا نحاكهم في الأرجاف ويتلمس بعضنا لبعض التهم والعيوب . كثيرون منا من أشبع بهذا السلوك النفسى روحه ، وصفاً إليه قلبه ، وصار يعتمد في محاربة مخالفته في الرأى على هذا السلاح اللوتور . وإن أقدامنا لتعثر بهؤلاء الذين وقفت أخلاقهم . . إذا جاءهم أحد بما لا تهوى أنفسهم ، قالوا :

هذا صنيع جماعات تبشيرية - وطليلة حرب صليبية ، أو مؤامرة شيوعية . ! وقد تلتقى هؤلاء المرخفين أنفسهم يقولون في غباء مضحك : - إن الإسلام أخذ الشيوعية ، وأخذ المسيحية ، وصنع منهما معاً نظاماً اسمه الإسلام .

ثم لا يهتمون أنفسهم — طبعاً — بأنهم شيوعيون ، ولا صليبيون . مساكين ،
لأنهم ضحايا الاستعمار الذي أفسد علينا أنفسنا . وشرد ثقتنا بها ، وبالأخرين .

د — الخداع بالهيئات الدولية :

إن الاستعمار يؤمن بعلم النفس ، ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، وهو يعلم
روح العصر الذي نعيش فيه ، وهذا الروح الانقلابي التحرر الذي لا يريد أن
يرضخ لضيم ، ولا أن يسام كما تسام القطعان . لذلك اصطنع هيئات دولية تكون
أداة تنفيس ، وتسرية ، ومماطلة فلو لم يكن في الدنيا آفة تسمى « مجلس الأمن »
لكانت مصر قد حلت قضيتها بسواعدها — يوم كانت تمور مورا عنيها عقيب
وضع الحرب أوزارها . ولكننا أتجهنا إلى مجلس الأمن ، وهيئة الأمم ، وران
علينا الركون وقامت فن وأصبحنا اليوم في شغل بأنفسنا عن عدونا — وهذا
ما يريده الاستعمار ، وهيئاته الدولية . !

ماذا صنع لنا مجلس الأمن ؟ لقد أوصانا بالأناة ، والحلم ، وحسن الضيافة !!
وماذا صنعت هيئة الأمم ؟ لقد استجابت لرغبة وزير خارجيتنا « الدكتور صلاح
الدين » وعطلت جلستها يوم عيد الأضحى للماضي ، احتراماً لنا ومجاملة كريمة منها !
هذه هي التضحية الوحيدة التي ضحت بها الهيئة من أجلنا ، وشكر الله لها ورعاها
إلا أنه إذا أراد قادتنا وحكامنا^(١) أن يصيبنا جنون ، فليحدثونا عن قيمة هذه
الهيئات ومناقبها كثيراً . . أمانحن فنريد لهم مزيداً من العقل والفهم . لذلك لن
نحدثهم عن مناقبها . بل عن مساوئها ، وهم بها عالمون .

إن هذه الهيئات التي يخدعنا الاستعمار بها — ويتظاهر بالنفزع حين نلوح

(١) المقصود هو الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى سنة ١٩٥١

بالاختصاص إليها — هي « القابلة » التي استقبلت « إسرائيل » على كفيها
الآمنتين : وقالت لها كوني شوكة الجنب لهؤلاء العرب الصعاليك . ا

هي التي وقف « النقراشي » تحت سقفها ، يقول مالم يقله أحد قبله ، وما
لن يقوله أحد بعده . والأعضاء المحترمون يتشاءون حتى إذا قام ممثل بريطانيا
ليتكلم ، أصغوا إصغاء جميلا ، وصدقوا إفكهم — وتركوا مصر لا تزال تعج في
قيودها الغلاظ ، الثقال . ا وكل محاولة ولو فاجرة ، لدولة كبرى تسارع هذه
المنظمات الدولية لمناصرتها . فإذا نوديت لغوث أمة ضعيفة مضطهدة ، فالهيئة نائمة
ولعن الله من أيقظها . ا

إن أحسن عبارة وصفت بها هذه المنظمات تلك — العبارة الجامعة لسكاتب
أمريكي نعتها بأنها « وكالة حكومات » . فلنرفع عن أبصارنا غطاء الوهم ،
ولنوفر مانسفكهم في تلك الهيئات من وقت وجهده . ولناخذ الحكمة ، ولو من
وايزمان ، الذي كتب لأمته يقول : « مامن دولة في العالم بنيت بوعد ، أو
مرسوم ، إنما يبني الدول ، كفاح الشعوب عبر الأجيال » .

لا مجلس الأمن ، ولا هيئة الأمم ، بقادرين على منحنا الحرية والاستقلال —
إلا إذا منحناها نحن القدرة أولا ، من كفاحنا الحاد . وصراعنا الرهيب .

ه — الاحتلال العسكري ..

وختام هذه المرتكزات التي يعتمد عليها — الاحتلال العسكري .

إن الإنجليز متشبثون ببقاء جيشهم جاثما فوق استقلالنا وكرامتنا — لا خوفاً
من روسيا ، ولكن خوفاً منا نحن . إن تاريخهم الأسود معنا يفرعهم ، ويوحى
إليهم أننا حين نملك حريتنا كاملة ، فلن نختارهم حلفاء ، ولا أصدقاء . .

لقد قال الشعب رأيه فيهم ، وهو لا يخرج عن رأى صاحبهم « توماس بين »
وقالت الحكومة رأيها وأخفا كفلق المصبح في مجلس الأمن ، قالت : (١)
« إن الإنجليز فضوليون ، ويعرفون توثيق روابط الوحدة بيننا ، ويعملون
على هدمها ، ويخلقون الأقليات ويشجعونها ، ويقعون البلاد في حال من التأخر
والشقاق . . »

« . . إن العهد الذى بيننا وبينهم بمعاهدة « ٢٦ » ليس سوى أثر من آثار
القرصنة التى نجهد فى نسيانها . ولم يبق فى هذه المعاهدة إلا ما يهدد السلام .
« . . ولا ريب أنكم ستكونون عوناً لنا على استئصال هذا السرطان الذى
ينتاب السلام فى وادى النيل . . »

بعد إبدائنا هذه الآراء فيهم - حكومة وشعباً - فقدوا كل أمل فى مودتنا -
واعتقدوا أننا سنختار أصدقاءنا من غيرهم . وربما من أعدائهم لهذا قرروا
الاحتفاظ بجيشهم المسلح لينالوا مأربهم مناكرها ، واقتساراً .
إن بريطانيا تضرر لنا زراية أكيدة ، واحتقاراً كبيراً . بل هى لا تضرر
ذلك وإنما تنادى به وتصيح ، وشاهدنا على ذلك مستر آتلى نفسه ..

لقد وقف خطيباً فى المؤتمر السنوى لنقابات العمال البريطانيين يوم ٥ - ٩ -
١٩٥٠ فقال بالحرف الواحد : (١)

« . . قابلنا العدوان الشيوعى فى الطريق حين تركنا الهند والباكستان ،
وسيلان ، تتمتع بكامل حريتها وسيادتها » ١١ أرايم يازعماء مصر . ؟ أسمعت
ياشعب مصر . ؟ بل أسمعت ياأخايا الاستعمار ، فى العراق وفى الشام .

(١) من خطاب النقراشى باشا بمجلس الأمن .

(١) آخر لحظة العدد (٨٨)

لو كنا مصدر إخافة وخطر ، لركبتنا بريطانيا تتمتع بحريتنا ، وسيادتنا ولو أن بريطانيا ترجو لنا وقارا — مثل الثوقار الذي ترجوه للهند وجارتها لتغير تاريخنا على الأقل ، لم نكن منجد ذلك الضابط البريطاني الذي يطرد من أمامه ضابطا مصريا دخل عليه في « فايد » قائلا :

اخرج .. أنت هنا في أرض إنجليزية !

هذه — مجتمعة — هي الاستعمار ..

(ا) المعاهدات ..

(ب) التخويف بالشيوعية والحرب .

(ج) إغراء بعضنا ببعض ..

(د) الخداع بالهيئات الدولية ..

(هـ) الاحتلال العسكري ..

والآن — أين الطريق طريق الحرية والخلاص ؟

هذا هو الطريق :

في تقيض الوسائل التي يتوصل بها الاستعمار لدعم نفوذه تتمثل وسائل تحريرنا وظفرنا ، فإذا كانت أولى وسائله المعاهدات فليكن نهجنا لامعاهدة !

إننا مع بريطانيا في مفاوضات منذ عام ١٩٢١ ولم نزل منها سوى تمزيق صفوفنا ، وتحطيم مقاومتنا ، وتاريخ بريطانيا معنا ، ومع سوانا ، لا يشجع أبداً على التفاؤل بمستقبل أخلاقها السياسية . ستظل كما هي تتوصل بكل موبقة لمنافعها الخاصة ، وأغراضها الاستعمارية . وما من زعيم مصري إلا وصرح بهذه الحقيقة وهو خارج الحكم . ونحن نهتم جداً بأراء زعمائنا خارج الحكم لأنها غالباً لا تكون نمرة حرص ولا غرض ..

في يوم ٣١ - ٧ - ١٩٤٨ صرح عزام باشا لجريدة المصري هذا التصريح :
 « إن موقف إنجلترا معنا في هذه الحرب — يعني حرب فلسطين — دليل واضح على أن معاهداتنا معها لا قيمة لها ، إلا حيث تكون المصلحة الانجليزية . ولا يمكن لعاقل بعد هذه التجربة أن يرضى بحلف مع بريطانيا كل نتائجها بالنسبة لنا أن تمتنع في أيام شدتنا عن الوفاء بما فيه من التزامات » .

هذا كلام رجل مسئول ، تختاره من دون الرجال والزعماء ، لأنه شخصية محايدة ، ويحتل مركزا محايدا ، وهو لهذا أبعد من غيره عن مواطن الريبة في أحاديثه السياسية ، على الأقل .

ولكن واقعيين ، فنسأل : من إذن نحالف ، غير بريطانيا ؟

هل نحالف أمريكا مثلا .. ؟

كلا.. أن أمريكا شريكة الاستعمار البريطاني في كل جريمة منذ غادرت عزلتها.. وانطلقت في شره واستكلاب نحو السيطرة السياسية على العالم ، وعلى البترول..

ولقد جاهر أيضاً بهذه الحقيقة سفيرنا بوشنطن في حديث مسهب طويل . وكتب مراسل من أمريكا يصور وجهة نظر وزارة الخارجية الأمريكية في قضية مصر بالذات ، فاسمعوا ماذا يقول :

« إن وزارة الخارجية الأمريكية ترى أن جلاء القوات البريطانية عن مصر ، لا بد أن يعقبه إشراك مصر في الكتلة الغربية للدفاع عن البحر الأبيض المتوسط ومناطق الشرق الأوسط ، وأفريقيا .. وهذا يتطلب بطبيعة الحال مد برنامج الرئيس ترومان ومد مصر بالأسلحة .. ثم ضمها إلى ميثاق الأطلسي خاصة إذا صنعت تركيا إليه ..

«ولكن وزارة الخارجية الأمريكية تشعر بأن الوقت لم يحن بعد لأن تقف مصر كتركيا على قدم المساواة مع الدول الكبرى في الدفاع عن الشرق الأوسط...»
 «والسياسة الأمريكية التي تخضع إلى حد كبير للنفوذ الصهيوني ، لن تسمح بهذا لأنه يؤدي إلى الاضرار بمركز إسرائيل ، . ا

« وبالرغم من أن مصر دولة مستقلة ، فان وزارة الخارجية الأمريكية لاتزال تعتبرها منطقة نفوذ بريطانية — وهي لا تنظر إليها نظرتها إلى تركيا وباكستان كدولة ذات شخصية دولية مستقلة » . . . ا ا

فليحفظ المصريون هذه الحقائق ، كما يحفظون السورة من القرآن . . أو الآية من الإنجيل . .

. إن السياستين الأمريكية والبريطانية شيء واحد فيما يتصل بقضيتنا .
 . الاتفاق تام بين الدولتين على عدم تسليحنا خوفاً من أن نستعمل السلاح ضد إسرائيل ، وليدهم الناشء المدال . .
 . والاتفاق تام كذلك بينهما على أن تظل مصر دولة صغرى ومنطقة للنفوذ البريطاني ، يطلق فيها يده كما يشاء . . ا

والدليل على هذا أن أمريكا نفسها تقدمت للمستولين في مصر بنصيحة فخاوها — أن نحل مشاكلنا مع بريطانيا عن طريق المفاوضة . .

من إذن نحالف غير بريطانيا وأمريكا ؟

وأجيب — فلنحالف أنفسنا . ، ولن نجد أحداً سوانا يستطيع أن يدرأ عنا الأعاصير . وصدق المتنبي :

خليك أنت ، لا من قلت خلى وإن كثر التجميل والكلام

وإذا كان الحياء اليوم قد أصبح منوطاً بمؤثرات خارجة عن إرادة الأمم التي
ترغبه وتريده . . وإذا كان لاغنى لنا عن حليف فلنعمل بنصيحة عبد الرحمن
عزام التي سلفت . ولنستمع لصوت مصري مسئول آخر - هو الأستاذ
حسن سليم - رئيس مكتب الاستعلامات المصري بنيويورك : لقد وقف في
النادي الدولي للطلبة بجامعة « كولبيا » وقال :

« إن روسيا لم تهاجم مصر قط . . أما إنجلترا وفرنسا فقد هاجمت كلتاها
مصر أكثر من مرة . »

كلمة واحدة فاصعوها .

إما أن نحالف أنفسنا ، ونمنح صداقتنا ، وسلامنا لكل من يريدنا . . وإما إذا
لم يكن من الحليف بذ ، فلنحالف روسيا . .
روسيا . . ١٩

نعم ، . روسيا . . وهل بدارة بالناس من عار . ؟

نحالف روسيا الدولة ، لا الشيوعية . . للذهب . لقد حالفها أمريكا ولا تزال
ملاذ الرأسمالية . .

وحالفها بريطانيا ، ولم تصر شيوعية . .

ومنذ أربعة أعوام تقريبا حاولت أمريكا أن تعقد جلسة اتفاق مع روسيا
دون أن تعلم بريطانيا وفرنسا : لولا أن أعلن مولوتوف ذلك في إذاعة له
فضحت الدولة المحترمة جداً . . أمريكا .

إن دولتي « المحور » بريطانيا وأمريكا — لاتساعدانه ، ولاندعان الغير
يساعدنا . لقد حرمونا من السلاح بينما أبدت روسيا استعداداتها لتزويدنا بالسلاح
الذي نريد . ولكن « المحور الاستعماري » هدد حكوماتنا ، وحذرنا . فألى
مق سنظل نجبن ، ونخاف ؟

لقد وافقت بريطانيا بعد طول تردد أن تورد لنا بعض الأسلحة في عام ١٩٥٦ : أتدرون — لماذا . ؟ لكي تكون إسرائيل قد بلغت من القوة والتمكن ما يجعلنا نحجم عن استعمال السلاح ضدها . !

هؤلاء هم الحلفاء الشرفاء . . . !

وفي نفس الوقت عرض وزير روسيا المفوض باسم حكومته على حكومتنا استعداد روسيا لتزويدنا بكل ما نحتاجه من طائرات ، وأسلحة ثقيلة وخفيفة — على أن تسلمها لنا من فورها . ليس ذلك فقط . بل وأبدت استعدادها لتسليمنا ما يلزمنا من آلات الصناعة والزراعة الحديثة .

لماذا كان جواب حكومتنا . ؟ نجيبنا على ذلك صحيفة تنطق باسم الحكومة فتقول : « وللفهم أن ولاية الأمور قد تلقوا هذه العروض بالشكر » !

كونوا انجليز . .

لماذا تصر بريطانيا على أن تربطنا بعجلتها هي وأمريكا ؟

لماذا تريد أن تسخرانا لمحاربة روسيا . ؟

أليس يرضى بريطانيا أن نكون بريطانيين ، وأن نتخلق بأخلاقها الطاهرة الفاضلة . ؟ سنصنع ذلك . ! وإذن فاسمعوا .

عندما ثارت بلغاريا على تركيا سنة ١٨٧٥ — طلبت روسيا ، وألمانيا والنمسا إلى إنجلترا أن توقع مذكرة احتجاج قاسية على تركيا ، فرفض رئيس وزراء بريطانيا آتشد وهو « دزرائيلي » وقال : « كيف تساعد إنجلترا في القضاء على

دولة لها صالح في بقائها . ؟ « وكيف تتعاون مع إسمارك الصديق الذي لا يعتمد عليه ! »

يالدكء درزائلى هذا ، . وسررد اليوم نفس كلته ، ونقف نفس موقفه ونقول :

كيف تساعد مصر في القضاء على دولة لها صالح في بقائها . وهى روسيا ؟

وكيف تتعاون مع بريطانيا ، الصديق الذي لا يعتمد عليه . ؟

هذا إذا تساعنا ، وارتضينا بريطانيا صديقاً :

وإذا ماسثات : كيف يكون لمصر صالح في بقاء روسيا سليمة قوية ، ؟

أجيب : سلوامستر « أتلى » فهو الذى يقول ذلك — لا أنا .

وإذا كنتم قد نسيتم فأعيدوا تلاوة كلمته التى مرت بنا من قبل ، والتى قال فيها : « لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق . حين تركنا الهند وباكستان وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها » .

إذن لولا خوف بريطانيا من روسيا ، مامنحت هذه الأمم استقلالها . ويوم ينتابها نفس الحذر من جهتنا ، فلن تتردد قط فى أن تسلم لنا بحقوقنا كافة . إن بريطانيا تتدلل علينا ؟ وتستعثر بنا — لأنها على يقين بأن سادتنا لن يمدوا أيديهم البضة المترفة إلى روسيا أبداً .

ولو أحست أدنى إحساس بأننا سنفعل لتكونن أسبق إلى ما نريد منا أنفسنا : ! فلنحالف روسيا دون أن نكون شيوعيين — إن ذلك ممكن جداً بدليل ما قلناه من أن بريطانيا وأمريكا حالقها دون أن تصيرا شيوعيين . إنه فى

لوقت الذي تصرخ فيه أمريكا بأن مصر منطقة نفوذ بريطانية ؛ يعلن وزير خارجية روسيا في حديثه لجريدة المصري في ٢٩ / ١١ / ١٩٥٠ ما يأتي :

« لقد سبق أن قلنا ورددنا على مسامع الزعماء المصريين أن الاتحاد السوفيتي سيظل دائماً في جانب الشعب المصري في نضاله ضد الاستعمار البريطاني ، وعندما عرضت المشكلة المصرية على هيئة الأمم المتحدة منذ أربع سنوات — دافع الاتحاد السوفيتي عن حقوق هذه البلاد التي أصيبت في كرامتها بوجود القوات الأجنبية في أرضها — وفي كل عمل تريد أن تقوم به الحكومة المصرية والشعب المصري للتخلص من القوات البريطانية سيجدان الاتحاد السوفيتي دائماً إلى جانبهما .

« إن مكافحة الاستعمار لا تتأكد في نظرنا ، ضمن نطاق بلد أو بلدين ، بل إننا نرى وجوبها في كل بقعة من بقاع العالم . »

« إن الحقوق الشرعية ، والمطالب الطبيعية للشعب المصري يجب أن يعترف بها ، وأن تتحقق : »

فهل بعد المقارنة بين هذين الموقفين . موقف بريطانيا وأمريكا من جانب ؛ وموقف روسيا من جانب آخر تردد في اختيار حليفنا ، إذا كان لا بد لنا من حليف ؟

الاشتراكية . . والسلام . !

وإذا كان المرتكز الثاني للاستعمار في بلاد هو تخويفنا بالشيوعية ، وبالحرب فليكن موقفنا من الشيوعية أن نسبها بالاشتراكية ، ونطبق من نظمها ما يسمع به تطورنا وإمكانياتنا .

ثم لماذا نخاف الشيوعية . !

لقد أعلن « ستالين » وأعلن أيضا « فيشنسكي » أن الشيوعية والرأسمالية
تستطيعان أن تعيشا بلا حرب ولا خصام .

ولكن الإنجليز يخوفوننا بالشيوعية لترغم في أحضانهم ، بل ويصنعون
لأنفسهم حركة موسومة بالشيوعية لينفذو عن طريقها أغراضهم الاستعمارية
الخبيثة !

وإذا خوفونا بالحرب ، فليكن موقفنا السلام .

إنه يوم يقر في ذهن السياسة البريطانية أننا لن نحارب معها ولا في سبيلها
وأننا لن نسمح لبريطانيا ولا لأمريكا ولا لروسيا - أن تكون بلادنا ميدانا
لجيوشها وحقلا لتجربة أسلحتها ، فإن بريطانيا ستفكر في مسألتنا تفكيراً سديداً

فلنردد كلمة الراعي من جديد لن نخوض حرباً لاناقة لنا فيها ولا جمل .

ولنعلم من اليوم أننا « سلاميون » نريد السلام ، ونقف بجانبه ..

ولكن أى سلام نريد . ؟

لقد صار السلام صنوفاً وألواناً .

إننا نريد السلام الذي ثمره مصالحنا الخاصة ، وتكيفه ظروفنا الخاصة
دون أن نتأثر في هذا بأية مؤثرات أجنبية أخرى ، وبعد ذلك لن يضيرنا أبداً
أن نناصر السلام ، ونتشبه به .

لقد وقف رئيس جمهورية فرنسا في مؤتمر نقابة المحامين الفرنسيين يوماً
فقال : لقد عرفت فرنسا الاحتلال الأجنبي ، وذاقت مرارة الاعتداء ولذلك
فشعبنا سوف يدافع عن استقلاله الوطني بكل شجاعة - إلا أننا لا نريد أن نخاطر
بكياننا مخاطرة جنونية . ولذلك نريد السلام لأن السلام العالمي شرط أساسي
للاستقلال الوطني .. »

وإذا كان الشعب البريطاني قد وجد من الحرية ما يصرخ به يوما في وجه وزير
حريةته : لا حرب من أجل الدولار .. فإننا نمنح أنفسنا من الحرية ما نصرخ في
وجه للمستعمرين « لا حرب من أجل الدولار ، ولا من أجل الاستعمار . »

وخطب السنيور « جونلر » وزير المعارف الإيطالية ، وعضو الحزب
الديمقراطي المسيحي فقال :

« إن السياسة الخارجية للوزارة الإيطالية قائمة على مبدأ دستوري هو —
إننا ضد الحرب ، وضد أي عدوان على أرض الوطن . »

إن الاستعمار يعمل في كل مكان لإعداد ضحايا للحرب وإن خبراء الحرب من
رجاله ليجوبون البلاد لينشئوا القواعد والمسكرات ، وبكل تبجح ووقاحة
يتصرفون في أخص شئوننا كما لو كنا أحد شوارع لندن ، أو باريس
أو واشنطن !

ولقد بلغت الجرأة بالمقيم الفرنسي أن قال :

« إذا قامت حرب عالمية أخرى ، فسأركض برجلي ، فينبثق منها جيش
جرار من المغاربة » . ا

وأجابه الأمير عبد الكريم الخطابي بمنشور لافتح خاطب فيه بني وطنه
قائلا : « إن عقيدتكم ، وعزتكم ، ووطنيتكم لتحتم عليكم أن ترفضوا دعوة
الفرنسيون إلى التطوع في جيوشهم . لأنهم يدفعون بكم إلى التضحية في سبيل
المحافظة على أمبراطوريتهم المتداعية . »

« إن ساعة تحريركم من ظلم المستعمر قد دقت .. فلا تؤخروها بانضمامكم إلى
جيوشه » ا

مؤامرة على مقدساتنا .

وبلغت الجرأة بأمريكا أن تجعل « الظهران » قاعدة حرية لضرب روسيا بالقنابل الذرية .

وما الظهران هذه . إنها أرض بالحجاز بينها وبين المسجد الحرام ، ومسجد الرسول مثل لمح البصر بالطائرة أو هو أقرب .

ترى هل ستظل روسيا ساكنة ساجية إزاء هذه القاعدة الحرية التي ستقذف منها حاملات الموت والدمار . ؟

كلا . وعندئذ ستحاول لاحتالة ضربها ، وضرب ما حولها .

والذي حولها — يا أربعائة مليون مسلم — هو مسجد رسولكم ، وبيت الله العتيق . ا

لماذا لم تتخذ أمريكا من الفاتيكان قاعدة حرية . ؟

لأنها تخاف عليه ، وتقده . ، وتغار على ساحة القديس بطرس أن تسمى مقبرة ضخمة لما هناك من مقدسات . ا

لقد نشرت صحفنا كلها خبر اختيار أمريكا للظهران قاعدة حرية بحروف بارزة صارخة . ومع هذا لم يتحرك أولئك الذي استطار بهم الدعر يوم همت بعض أعمدة المسجد النبوي أن تنقض وتتداعى . ا

ترى هل المسئلة من السهولة واليسر إلى الحد الذي لا يستجيشهم ، ويشير غيرتهم . ؟ ! أنها مؤامرة خطيرة جدا تدبرها أمريكا بإسادتنا المؤمنين .

فنحن لا نضمن ، وفي ضباطها يهود كثيرون — أن يضرب أحدهم في غمرة الحرب مقدساتنا من الجو ، فينسفها ويذروها .. بل لانضمن أن تصنع أمريكا نفسها ذلك لتضطاد عصفورين بحجر ؟ فتدمر هذه المقدسات أولا .. وتذيع أن روسيا هي التي اقترفت الجريمة ، لتنتفع بحقدنا عليها ثانياً .

إن هذه الحطة الوقحة ، التي اختطها الاستعمار الأمريكي ، لتفتح أبصارنا على حقيقة مستيقنة — هي أن أي تمكين دبلوماسي أو تجاري لدول المحور الاستعماري في بلد يفضى بها إلى كارثة . لقد دخلت أمريكا الحجاز تاجرة ، تستخرج البترول وتبتاعه ، وبعد عشية وضحاها أصبحت مستعمرة . مستعمرة بكل معاني الكلمة ، وأنشأت دون اكتراث العالم الإسلامي كله قواعد حرية في أرض يجب أن تظل محايدة نائية عن كل قتال وعراك .

لترجع أمريكا عن غيها ، ولتغادر الأرض المقدسة التي دنستها .. والتي تريد لها مزيداً من الدنس والدمار .

ولتخرج انجلترا من بلادنا إذا كانت تخاف علينا من الشيوعية ، فاستعمارها أكبر محرض عليها ، وداع إليها .

وإذا كانت تحتلنا بدافع الحرب .. فلتعلم أننا — حكومة وشعباً — قد آثرنا السلام ، وقررنا ألا نكون الحنطة التي تدور عليها طاحونة الاستعمار .

ليثق بعضنا ببعض :

وإذا كان الاستعمار البريطاني يتوسل أيضاً لبقائه بتبديد ثقة كل منا بمواطنيه ويرسل الإشاعات الكاذبة ليفسد بها ضمائرنا فلنضع نحن أصابعنا في آذاننا . وليس ثمة واجب يتجلى فيه الالتزام الفردي ، كهذا الواجب . فلا تصدقوا إشاعة

ولا اتهاماً ، ولا تروجوا لإشاعة ، ولا اتهام . لقد سأل الرسول عليه السلام رجلاً
يتهم آخر فقال : « أتري هذه الشمس ؟ »

قال : نعم . قال الرسول : على مثلها فاشهد ، أودع .

وكان يقول : « لا تبلغوني عن أصحابي شيئاً ، فأني أحب أن أخرج إليكم
منشرح الصدر » .

وأخبر أن أبغض الناس إليه ، وشرهم مكاناً عند الله ، الملتصقون للأبرياء
العيب .

إذا جاء من يتهم مواطنك ، فأعرض عنه ، واذكر دائماً أن السفارة
البريطانية غير الرسمية . تعمل ليلاً ونهارها لهذا الغرض الدنيء ، فأفسد عليها أمرها
ومساعها .

إن زعماءنا — مهما نشد في تقدم — ليسوا شراً خالصاً . وإنما هم
قوم خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً . فلننتفع بما فيهم من خير ، ولنعاونهم على
التخلص مما بهم من سوء .

ننحن .. وحدنا :

وإذا كان الاستعمار يلهمنا بالمنظمات الدولية ، فلنكن أيقاظاً .. ولنعتمد
على أنفسنا وحدها . ولنجعل صلتنا بتلك المنظمات صلة شكلية تبرز بها شخصيتنا
الدولية فقط .. أما حقوقنا ومطالبنا فلنسلك إليها الطريق وحدنا وهذا يفضي
بنا إلى النقطة الأخيرة وهي :

الاحتلال المسلح:

في سنة ١٨٧٥ قال دزرائيلي : إن روح إنجلترا هي الحرب — مادام ذلك دفاعا عن كيانها .

وفي سنة ١٩٤٢ — قال تشرشل : إذا خیرنا أعداؤنا بين الحرب والعار ، فسنختار الحرب . سنقاتل على الشواطئ . . . و نقاتل على المهابط ، و نقاتل في الحقول ، وفي الشوارع ، وفي الجبال . سنقاتل من أجل حريتنا . ولن نستسلم أبداً .

وبعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، وفشلت المفاوضات الدائرة بين هولندا وأندونيسيا — أذاع « أحمد سوكارنو » رئيس جمهورية أندونيسيا هذا الأمر على الشعب :

— « عندما تدق الساعة الرابعة من صباح الغد ستكون أندونيسيا جميعها — الحكومة والجيش والشعب — في حرب فعلية مع هولندا الغاصبة . وسنقاتل بكل الأسلحة . بالمدافع . والبنادق . والخنجر . والمراوات . والعقارب . والشعابين . ولنصر الله الوطن . »

في هذه الكلمات الثلاث — يامصر — تتمثل الوسيلة الواحدة لإجلاء البريطانيين الغزاة ، وكل طريق أخرى لن تفضي إلا إلى مذلة ودمار . وإذا كانت الحكومة المصرية قد عاونت الثوار سنة ١٩١٩ .

فإن واجبها في سنة ١٩٥٠ أن تقوم بنفسها الثورة المشروعة ضد الاحتلال الرجيم متأسية بمبادئ إنجلترا نفسها — التي وضعها دزرائيلي ، وتشرشل نعم — إذا خیرتنا إنجلترا بين الحرب والعار . وجب أن نختار الحرب فورا .

ولقد خيرتنا فعلا .. وبقي أن نختار . فلنذكر جيدا — أن الحياة لا تستحق أن نشترىها بالعبودية والرق . وأن البريطانيين لن يغادروا بلادنا طوعا ، بل كرها ، وهم صاغرون .

إذا لم نطرد الاستعمار :

إلى هنا نكون قد أجبنا الحديث في وسائل تمصير مصر ، وتخليصها . بقي أن نذكر أنه ليس حب الاستقلال وحده هو الذي يحتم علينا هذا التمصير بل يحتمه قبل ذلك حب البقاء ..

إن الحوادث تمر بنا بسرعة ، وهي تجلجل كدقات ناقوس هائل بأننا إذا لم نشئت عمل الاستعمار . فسيشئت الاستعمار ثملنا . إنه يهيء لحرب أهلية تقوم في مصر ليدفن تحت أنقاضها مصيرنا . لا بد من الصراحة ، فاسمعوا .

لقد بث الاستعمار الغمامة في حياتنا كلها ، وأعدّها للتفجير . ولقد خلق « الفتنة الكبرى » بين الهيئات المختلفة ، ولعب لعبته من وراء ، وحقق للأسف — دون أن يظهر على المسرح — كل ما يشتهى ويريد . وأفلح بهذا في أن ملأ بحوافز الثأر . ودواعى الانتقام — نفوسا كانت مفعمة بحوافز الانتفاض على الاستعمار ، ودولته ، وجيوشه . ا

ومن ناحية أخرى خلق نشاطاً شيوعياً إنجليزياً وأقنع الحاكمين بأن العاصفة فوق رؤوسهم ، فمضوا ينكلون بمواطنيهم ، وملئت نفوس أخرى بالحقد ، لاطى الإنجليز ، بل على مصريين مثلنا . ا وصار الشعب يلعن حكوماته ، والحكومات تلعن الشعب . . والمفسد الأكبر ذلك الاستعمار البغيض رابض يقهقه في نشوة وجذل . ا

فاذا كنا حريصين على وحدتنا ، وبقائنا — فلنرفع تجاه القلوب المتناحرة .
والوجوه المتنافرة أملها القديم يوم أن كانت جميعا . . ولم تكن شق . . أملها في
الظفر بالاستعمار وطرده وإقصائه .

وإذا لم نفعل ، فستنطلق الأحقاد المكظومة . والترات المولولة فتمزقنا شر
ممزق . وعندئذ تذرع جيوش الاحتلال شوارع القاهرة مرة أخرى وتدوس
الأشلاء المهينة . أشلاء الدين واتهم الفرصة غير مرة ليتحرروا فأبوا . وضلوا
ضلالا بعيدا .

يأليت قومي يعلمون . . إذا لم نلاق الاستعمار في ملحمة عاجلة ، فسنلاقي
أنفسنا .

حيث يفنى بأسنا بيننا ، ويضرب بعضنا رقات بعض .

ولو وجد فينا اليوم رجل رشيد . فلن تكون رسالته سوى أن يركنا جميعا
في قذيفة واحدة يقذف بها الاستعمار البريطاني فريديه ، ويحينا .

أتخافون انجلترا يا رجال ؟

إذن ، فاقروا — وهذا خير ما نختم به الحديث — نداء الانجليزى العظيم
«توماس بين» إلى الأمريكان يوم وقف يحرضهم على قتال بريطانيا في حرب
الاستقلال .. قال : —

« سلوني عن الإنجليز . فأنا أعرف بهم منكم . إنهم لن يخرجوا من بلادكم
إلا كرها . ولن يغادروها إلا مقهورين ، فلا تبجبنوا عن لقاءهم .

« ليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن يكون جباناً — المسألة كلها موازنة .
إما أن الخير في الاقتحام ، أو الخير في الهرب ... وليس العيب عيبكم .

أنكم توشكون أن تعملوا أقوى دولة في العالم تبشوا على ركبتيها ولذلك فأنتم ترتعدون .

« أيها الإخوة .

« ثقوا بالنصر .

« اجعلوا أيديكم تدافع عن أسلحتكم ، وليس العكس ..

« غطوا وجه الأرض بأساطيركم ..

« غنوا ، واستبسلوا ..

« وأحبوا ، وقتلوا .

« دعوا زوجاتكم ، وأولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا ..

« فكروا في النصر وحده ..

وبعد . .

« إن الحوادث لا تضيرنا . . ولكن
الذي يضيرنا بحق ، هو تقديرنا لها .
وهذا التقدير متروك لنا وحدنا ... »
موتان

إلى هنا تنتهى فصول الكتاب ويبدأ ختامه .. ولقد حاولنا جهد هذا البحث المقنن الموجز ، أن ننفض عن أمتنا طغاة البغي ، وخيبة الانكسار ، ونعاونها فى فض قيودها وأغلالها .

وإذا كان الله لا يساعد إلا الذين يساعدون أنفسهم ، فما لا ريب فيه إذن أن أمرنا متروك إلينا .. وأن مصائرنا قد وضعت بين أيدينا . وهذه حقيقة يجب أن نملأ وعينا . إن الشعوب التى كانت تتبع نفسها فتوبيخها ، قد ضجت فى قيودها .. وهى اليوم غادية لتبتاع نفسها وتعتقها .

أترانا من هذه الشعوب الميعة وجهها شطر التحرر والانعتاق ؟ إذا لم نكن منها ، فيجب أن نكون .

وعلىنا أن نبذل من أنفسنا أطيب البذل لنبلغ ما نريد .

ونحن مصرون على أن يعود الضمير «نا» إلى الشعب ، والحكومة معا . . إن الاثنين مجندان اليوم لنضال شاق نبيل يحرر مصر من أعدائها ، ومن نفسها .. وقد يرى بعض المواطنين أن استنجدنا بالحكومة وتشبثنا بمزاملتها للأمة فى الكفاح . نتيجة عدم الثقة ، أو ضعفها بالشعب : وهذا خرس يحتاج إلى الفطنة وحسن التقدير فنحن لا ننسى أن حركات التحرير لم ترفع ألويتها قط إلا على أكتاف الحفاة العراة الكادحين . ولكننا لا ننسى أن سواس الأمم اليوم غير سواسها بالأمس ، وأنهم مهما يحاولوا تجاهل الشعوب وحقوقها ، فأنهم يخشون بأسها ، ويحذرون انتفاضها : ويحاولون جهد وعيهم أن يقابلوها فى الطريق فلماذا لا نتيح لهم هذا اللقاء .

ولبلادنا بالذات وضع يحتم علينا أن نعمل معاً — حكومة وشعباً .. فنحن متفقون على أن محاولات النهوض جميعاً مكتوب لها البواء بالفشل . مادام ذلك السرطان الوقع يحوس خلالنا ، ويعيث فى بلادنا ..

ومن سوى الاستعمار البريطاني نعيه بالسرطان .. ا

ونحن متفقون أيضاً على أن عصر الحيوانات قد تولى وتقوض .. واستيقظ
في الشعب وجدان ثائر مستريب يقظان . لا يزدرد الحيانة في يسر ، ولا يتجرع
الأفك في صمت .

ومتفقون مرة ثالثة على أن ضعف شعب من الشعوب لم يعد مبرراً لاستغلاله
وهوانه .. فالشعوب كلها تتآخى اليوم تآخياً واعياً وهادفاً .. ولا يسمح
شعب حر أن تطوق حكومته شعباً آخر بالسلاسل والأصفاد .

من كان يظن ، أن يقف في فرنسا رجل من بينها ، هو «موريس توريز»
وتقف من ورائه صفوف الجماهير التي لا تنتهى عند مد البصر ، فيعارضون الجماهير
معه . إرسال جيش فرنسي إلى الهند الصينية لمحاربتها ، وإخضاعها للاستعمار
الفرنسي الطائش . ويقول قولته الحرة :

« لن يحارب آباؤنا وإخواننا من أجل استعمار غيرنا .. دعوا الهند
الصينية تتحرر .. إنهم بشر مثلنا » .. ا

بل من كان يظن ، عند ما تمادت الحكومة الفرنسية في استعمارها .
وظفقت تعد حملة عسكرية لتأديب تلك البلاد . أن يدعو «توريز» هذا جهاراً
علناً ، إلى عرقلة المجهود الحربي الظالم الذي تكتله حكومته ضد الهند الصينية ،
ثم يساهم ، ومعه نجل رئيس الجمهورية الفرنسية مساهمة عملية في تعويق الحملة
وعرقلتها .. ؟

علام تدل هذه الظاهرة الخيرة في تاريخ الحرية .

إنها انبثاقات ضمير جديد يتكون حثيثاً في البشرية الجديدة .. البشرية

التي تريد أن تسوى في التقدير والاحترام بين سائس الخيل، وحامل الصولجان ..
ويبين أضعف الشعوب ، وأقواها .. البشرية التي قررت أن تضع حكوماتها ..
في خدمة مبادئها .. لا أن تسخر مبادئها لأغراض حكوماتها ..

البشرية التي وقفت على سر ظفر الذئب بها .. وهو أنها كانت تسير في
موكب الحياة متصدعة متشتتة .. قد شطت نواها .. وانشقت عصاها . تظفر
الذئب منها بكل مستفردة قاصية فتعلمت وعرفت . وقررت أن تجمع شملها :
وتضم ألفتها ، وتصل نظامها ، وتتحرك في الموكب العتيد متشابكة الأيدي ،
موصولة الصفوف .

ألا إنه من الغفلة أن يستهين اليوم حاكم بحق شعبه وحرية ، كائنا ما كانت
قوة الحاكم ، وضعف الشعب .

ومن الصفاقة الممتازة .. ألا يرى حاكم شعبه جديراً بالحرية ، ثم يرى نفسه
جديراً بالتفرد والاستبداد .

فلنذكر جيداً ، أن الشعب مهما تكن ضآلته وتخلفه ، جدير بالحرية جميعاً
لأن الحرية ليست مثوبة يثاب الشعب بها أو نوطاً من أنواط الزينة والتكريم
يزين صدره .. بل هي حياته .. هي وجوده .. هي ضرورته الكبرى التي
لا ينهض بسواها ، ولا يحيا

وإذا كنا اهتدينا في مسيرنا عبر هذا الكتاب إلى وسائل التحرر والخلاص
كما نراها .. وربما أيضاً كما يراها بقية المواطنين ، فقد بقي أمامنا إدراك
حقيقة هامة .

يقول الفيلسوف « جوته » :

« إن التفكير سهل .. لكن العمل صعب .. والعمل وفق التفكير هو أشق
واجبات الحياة ، وأهداها سيلاً . »

ونحن اليوم شعب يحس كثيراً .. ويفكر قليلاً .. ولا يعمل أبداً .
ولكنه مع ذلك وللأسباب التي أبديناها آنفاً يستحق الحرية .. جميع الحرية
والواجب الذي يتوصل به لحقه ، يشع من كلمات ذلك الفيلسوف .
فلنفكر لأنفسنا في دقة وعمق .. ولنهيئ لها ، ونحن نفكر ، إرادة العمل .
فإذا ما انتهينا من إنضاج الفكرة .. انتهينا أيضاً من إنضاج الإرادة .. عندئذ
نعمل في ثبات وجرأة وفق تفكيرنا الواعي لا وفق عواطفنا المتبعة .

إننا حق الآن لانجيد فن التفكير ، ولا فن العمل .. فتفكيرنا وساوس
غامضة ، وعملنا انفعالات غريبة .
هكذا نحن الدولة والمجتمع ..

فالدولة لاتزال تؤمن أن خلاصها من المستعمر يأتي بالسلم عن طريق المفاوضات ..
ويأتي بالحرب عن طريق التمثيل والمظاهرات .. والشعب على دينها من المؤمنين ١٠
وهنا يبين حظنا الوافر من ضعف التفكير .. فلو أننا فكرنا تفكيراً مركزاً
لأنتهينا إلى أن انجلترا دولة تحترم القوة ، وتحترم الحق ..

دولة تؤمن بحقوق الإنجليز أولاً .. ثم حقوق الإنسان ثانياً !

دولة يجاهد رجالها عراة .. فتشقى للجلادين دولة ..

ويكرم رجالها في نادي «العلمين» فتعض الأيدي التي صكرتهم ، وتبصق
على الوجوه التي استقبلتهم .. !

نعم — لو أننا فكرنا ، لأعرضنا عن كل حاكم يتظاهر ضد الإنجليز .. لأنه
فقط نخدعنا ، ويطيل أمد مكثهم بيننا .. ولبحثنا عن الحاكم الذي يصنع كما
صنع « أحمد سوكارنو » فيقود الأمة والجيش إلى التحام هائل مع قوى الشر
والضلال التي أفتتنا وسوت بنا التراب .. !

ماذا وراء هذه المخاطرة من عاقبة .. ؟ الموت .. ؟
ما أعذب الموت إذا حان الأجل ! .

أن رائداً من خيرة رواد الحرية ينادينا ويقول :

« هل بلغ من قيمة الحياة ، وحلاوة السلم أن نشتريهما بالأغلال والرق ؟
وقانا الله ذلك . »

« لست أدى أى نهج ينهجه غيرى ، أما أنا فأقول : الحرية . أو الموت ! »
وضعف تفكيرنا ، هو الذى يجعلنا نسيء الظن بالحرية ، ونخاف على النظام
من ضراوتها ، ونحاصر الأمة بسلسلة عاتية من القوانين والإجراءات ..

ولو أننا فكرنا جيداً لعلنا أن الجهد الذى نبذله لترويض الشعب على احترام
القوة ثم لا يجدى ، خير منه جهد يبذل لترويض الشعب على احترام الواجب ، ثم
يجدى ويفيد .

وضعف تفكيرنا ، هو الذى جعلنا فرقاً وأشتاتاً .. يكيد بعضنا لبعض ،
ويلعن بعضنا بعضاً ..

ولو أننا فكرنا قليلاً ، لرأينا الأرض المشتركة التى تجمعنا كافة — من كل
الهيئات ، والأحزاب — هذه الأرض المشتركة هى « إرادة التحرر » .

كلنا — نحن الشعب — متفقون على إرادة التحرر بما نحن فيه من ذل
واستعمار واستبداد ، والخلاف بيننا فى الوسائل ، وهو لهذا خلاف صغير لا يعتاق
سوى القلوب الصغيرة ، والعقول الصغيرة .. فلنتكفل معا فى هذه التخوم المشتركة
والأرض الجامعة .

التفكير السديد — والعمل وفق هذا التفكير — هما الخطوة الأولى
لإرواد التحرير والإنقاذ .

والشعب الذى يكتظ فكره بالبغضاء ، والثأر ، والحسد ، والتربص ،
والعجز ، والتلاوم ، لن يكون شيئاً فى يوم ما . . . وسيظل رمزاً لما تستطيع
هذه الأفكار الرديئة السوداء أن تصنعه لتمزيق الأمم والجماعات .

فلنغسل تفكيرنا من هذه الأوضار .. ولنواجه مشكلتنا الكبرى بأفكار
مستقيمة مستبشرة بأسلة .. ولنحول طاقة الثأر والحقد التى تغص بها نفوسنا
إلى عدونا الحق المستعمر ، والمستبد ..

لماذا تتخاذل أفكارنا وتراجع عندما نواجهها لملاقاة مشكلة الاستعمار
البريطانى .. ؟

ولماذا تتقاع وتندفع من تلقاء نفسها لتضرب بعضنا بعض ، وتجعلنا عبرة
وأحاديث .. ؟

لماذا تخبئ فى الأولى . وتستبسل فى الثانية .. ؟

السبب أنها أفكار طائشة .. بل هى ليست أفكاراً على الإطلاق ..
لكنها انفعالات غريزة مجنونة تسرب خلالها — ويا أسفاه — كل طاقتنا حتى
إذا يعمنا كفاحنا شطر الاستعمار . لم نجد من أنفسنا قاصراً ولا ملتجداً !

أن المرء لا يضيره الحوادث ؛ وإنما الذى يضيره بحق ، هو تقديره للحوادث
فلنقدر الحوادث التى تقع بيننا — نحن المواطنين — تقديراً كريماً يرتفع
بنا عن التناحر .

ولنقدر الحوادث التى تجري بيننا وبين الاستعمار تقديراً يندفع بنا إلى
مناهضته ومقاتلته .

ما أروع محمداً عليه السلام ، وهو يقول لصاحبه في الغار : ما ظنك بأثنين ..
الله ثالثهما !

إن هذا التفكير المؤمن بالنصر، الواثق بالفوز، والعمل وفق هذا التفكير،
وكان ساعته يمتثل في الهدوء ؟ ورباطة الجأش — هما اللذان صرفا عنه أبصار
الذين لو نظر أحدهم إلى الغار لرآه .. ورأى صاحبه معه . ؟

لقد انتهى العهد الذي كنا نتساءل فيه . ماذا نعمل .. !

وحل عهد جديد شعاره : يجب أن نعمل .

وبعد . فما أنت ذا تبلغ ختام الكتاب .

أتظن أن ما بينك وبينه قد انتهى يلوغ هذا الختام . ؟

كلا .. فالآن يتلقفه عقلك الكامن . ووعيك الباطن ليصوغا لك منه فكرة .
ويرمى نهجاً .. ويصطنعاً إرادة تحدث بعد ذلك أمراً :

فلندعهما إلى حين .

ولنتصور من جديد ذلك الشوط الذي قطعناه .. لقد سرنا هكذا .

شعب في السلاسل .

الحرية .. هي الخلاص .

الشخصية .. كي تعمل ..

تمصير مصر

إن هذه الشمس التي تشرق علينا كل صباح تذكرنا بدفء الحرية ..

وهذا الفجر التي تتشقق عنه أرحام الليالي وأكمامها يذكرنا بضوء الحرية

وهذا الربيع في مهرجانه الطليق الحافل يستجيش حينئذ إلى الحرية

وصيحة آتية من وراء القرون تنادى الطغاة :

متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. ؟؟
وتسوقنا سوقاً عنيفاً لمركبة الحرية .

* * *

وإذا مثلنا - ما نحن . ؟ كان جوابنا :

نحن شعب يريد أن يصحح شخصيته

ويحقق حريته ..

ويعلن في ربوعه ونجوعه حقوق الإنسان .



م. السعادة
بمصر